القسم الثاني

التبدّل الثقافي والحكم الإمبريالي

وصف المؤرخون في حقبةٍ زمنيةٍ ما نموَّ الامبراطوريات الأوروبية بالاستعانة بعملية النماذج process model المستندة إلى مصطلحات أحادية الكلمة للإشارة إلى سلسلةٍ من المراحل، من قبيل الرحلة والمصنع، والحصن، والإمبراطورية. وكان ينبغي إضافة مصطلحين هما إزالة الاستعمار والتحديث بهدف الأخذ بالاعتبار نصف القرن المنصرم. لقد انبثق إضافة مصطلحين هما إزالة الاستعمار والتحديث بهدف الأخذ بالاعتبار نصف القرن المنصرم. لقد انبثق الواقع الكامن وراء هذه المصطلحات الأحادية الكلمة من المهارة التي أثبتها الأوربيون في إبحارهم إلى أي مكان في العالم، وإقامة مراكز لعناصرهم كي يتمكنوا من ممارسة التجارة، وتعزيز منشآتهم الساحلية، وأخيراً رؤيتها تتحوّل إلى إمبراطوريات إقليمية. ويزداد النموذج تعقيداً ما إن يبلغ مرحلة الإمبراطورية. لقد كانت بلدان ما وراء البحار تشتمل على إدارة حكومية يشغل الأوروبيون فيها مراكز القيادة. وكان لابد من إجبار العديد من السكان المحليين على العمل في هذه الإدارة الحكومية. وازدادت بعض الطبقات الاجتماعية المحلية ثراءً ونفوذاً فيما غاص غيرها أكثر فأكثر في الفقر وقلة الحيلة.

برزت، في أوساط الطبقات الاجتماعية النافذة المطالبة بإدخال المزيد من التغيرات طبقة من النخبة التي كانت على معرفة بالإنجازات المادية الأوروبية. وقد تحوّل أعضاؤها إلى مناصرين لتيار التحديث الذين أرادوا أن يتحقق وجه من أوجه الوعد المادي في العالم الصناعي- من أجلهم أو من أجل بلادهم أو من أجلهما معاً. العديد منهم أرادوا أن يحصلوا على المدخول الفردي الذي شهدوه في الغرب، وسعوا

لهذا الغرض باستخدام شتى الطرق والوسائل- الرأسمالية أو الاشتراكية المختلفة. قد تكون الأهداف المرجوة شديدة التباين، علماً بأنها حرصت دائماً على احترام بعض أوجه الثقافة المحلية التي نادراً ما كانوا يرغبون في التخلص منها. في أغلب الأحيان، كان الوجود الأوروبي يتضمن مبشِّرين يحاولون إقناع الناس باعتناق دين الغرب وقد أدخل الأوروبيون درجةً من التعليم والتغيّر الاقتصادي الغربيين من خلال تأثير الاقتصاد العالمي.

ثم حان زمن إزالة الاستعمار، وهي عملية باتت مألوفة لدى العالم الاستعماري بأسره تقريباً. قادت هذه العملية، في أغلب الأحيان، النخبةُ الداعيةُ للتحديث والتي عانت من الكبت الناتج عن الوضع الاستعماري وبدأت تنظِّم العمل السياسي على الطراز الغربي. ولهذا الغرض، اضطرت لتفعيل أقلّ عناصر المجتمع تأثراً بالغرب بغية إيجاد قاعدة شعبية للتمرد. ووجد المستعمرون أنفسهم مجبرين على الاختيار بين محاولة الخروج من البلاد بكل كياسة وفي جو من السلام النسبي، على غرار ما فعل الانكليز في الهند، أو أن يحاولوا الاحتفاظ بزمام السلطة بالقوة. ولكن في كل مرة دخلت القوة الاستعمارية في معركة ما، وبغض النظر عن انتصارها أو هزيمتها، كان الضغط الدولي والداخلي الذي تتعرض له يجبرها على الانسحاب، كما حدث للهولنديين في الهند الصينية، وللفرنسيين في الجزائر.

التحديث هو المصطلح الأخير والنهائي وهذا الهدف يكاد يكون شاملاً عاماً في العالم اليوم، فكل امرئٍ يود اليوم أن يستمتع بالإنتاجية المرتفعة والاستهلاك الفردي العالي للذين بدأت الدول الأكثر تقدماً بتحقيقهما منذ حوالي القرنين من الزمن.

ويظلّ هذا النموذج المتألف من ست مراحل ناقصاً غير مكتمل. إذ إنه يهمل الدولَ غير الغربية التي لم يَغْزُوها الأوروبيون بشكلٍ كاملٍ ولم يحكموها، من قَبيل اليابان. ويُهمل بدرجاتٍ متفاوتة، كلٌّ من الصين وتايلاند وأفغانستان وإيران. كما أنه لا يهتم بتايوان وكوريا اللتين كانت تخضعان للقائد الاستعماري الياباني وليس الأوروبي. لقد كانت الدول التي تمكنت من التملّص من السيطرة الأوروبية تتطلب

تحديثاً عسكرياً بدرجة كافية لكي تصبح إمكانية الغزو باهظة التكاليف في وجه أي مهاجم، وكان لابد أن تكون لهذا التحديث كلفةٌ أيضاً. اعتادت القيادة المنفِّذة للتحديث أن تضع الحكام السابقين جانباً. وفي ذلك تغيير ثوري أجبر النخبة المناصرة للتحديث على محاكاة الوطنيين المحدِّثين في المستعمرات السابقة، وبالتالي، دخلت هذه الدول التي لم تخضع يوماً للاستعمار في العملية نفسها. إلا أنّ دخولها هذا لم يحدث إلاّ في المرحلة الأخيرة من التحديث التالي للاستعمار.

تعالج الفصول الثلاثة التالية للتبدل الثقافي في مرحلة الإمبراطورية. والهدف هنا يتمثل في استخدام أمثلة فردية تبرز اختلاف الظروف التي عايشتها الشعوب غير الغربية وتفاعلت فيها مع السياسات التي سعت الحكومات الاستعمارية لفرضها عليها. أما الفصل الرابع فيطرح حالة المجتمعات المتعددة الأعراق حيث كانت الهيمنة الاستعمارية مصحوبةً بأقليةٍ لا يُستهانُ بها من المستوطنين الوافدين من أوروبا. ويعالج الفصل الخامس أمثلةً من التبدل الثقافي في أجزاء من الأميركتين سعت الشعوب الهندية -الأمريكية الكثيفة العدد نسبياً لمقاومة هذا التغيّر أو لتكييف أسلوب عيشها كي يتماشى مع نمط حياة الشريحة المسيطرة في المجتمع المكسيكي. أما الفصل السادس فيطرح حالات مقارنة من التبدّل الناتجة عن السياسات الإمبريالية المتعلقة بالإدارة والامتلاك الإقطاعي للأراضي في بعض الامبراطوريات الإقليمية في آسيا الجنوبية.

٤

التبدل الثقافي في المجتمعات المتعددة الأعراق في منطقتي جنوبي إفريقية وآسيا الوسطى

لا يأخذ النموذج المعروف للرحلة، والسفر، والحصن، والإمبراطورية بالاعتبار المجتمعات المتعددة الأعراق التي تنبثق من الهوة الفاصلة بين الإمبراطورية الإقليمية من جهة وبين الاستعمار الحقيقي من جهة أخرى. أول هذه المجتمعات ظهرت في أمريكا الهندية، وبالتحديد في الدول التي تمتد على طول العمود الفقري للأميركتين من المكسيك باتجاه الجنوب نحو بوليفيا وباراغواي وأجزاء من الأرجنتين وتشيلي. يتميز هذا المزيج الثقافي بتنوع شديد. ففي بعض الدول، تعيش مجتمعات هندية منفصلة في عزلة نسبية. أما في بلدان أخرى، من قبيل المكسيك، فقد تكاملت الثقافتان الهندية والإسبانية على مر العصور، بحيث طغى على ثقافة الأغلبية الطابع المكسيكي أكثر من غيره.

وانبجست مجموعةٌ أخرى من المجتمعات المتعددة الأعراق الأمريكية من المجمَّع الزراعي في منطقة الكاريبي وغرب أمريكا الجنوبية. انتشر الأفارقة في كل مكان، وامتزجت الثقافات بحيث تشكلت ثقافة جديدة كاريبية عقب انتهاء تجارة العبيد الأفارقة، أدت الهجرة الضخمة للعمال المستخدمين لأجل معين والقادمين من الهند إلى تشكيل مجتمع ثقافي منفصل من غرب الهند، في بعض الأماكن. وفي معظم الأحيان، كان المجتمع الأوروبي صغيراً جداً. لكنّ الأوروبيين كانوا يشكلّون الأغلبية في بعض الجزر، من قبيل كوبا وبورتوريكو.

ثمة مجموعةٌ مماثلةٌ من المجتمعات المتعددة الأعراق في جنوب شرق آسيا، وقد نتجت التعددية الثقافية عن حركة النزوح داخل العالم الاستوائي، وليس عن مجتمعٍ كبير العدد من المستوطنين الأوروبيين.

لقد تألفت مجموعة المهاجرين الأكبر عدداً من الصينيين. وبذلك فقد كوّنوا المجتمع العرقي الأكبر عدداً عند وفادتهم إلى سنغافورة، ولاسيما في مطلع القرن التاسع عشر، كما شكلوا أقليةً كبيرةً في ماليزيا وتايلاند وإندونيسيا. كما أصبح المهاجرون الهنود في الفترة ذاتها مجتمعاً ثقافياً مهماً في كل من سنغافورة وبورما السفلى وماليزيا.

وظهرت أشكال متنوعة من التعددية الثقافية الاتحاد السوفييتي في سنوات انقسامه. وقد عكست بعض المشاعر العرقية إحساساً بالوطنية المتباينة بين الشعوب التي كانت ثقافتها عبارةً عن فرع مشتق من الثقافة الأوروبية العامة. إنّ انقسام جمهوريات البلطيق. ومولدافيا، وأوكرانيا، وروسيا البيضاء مثل الانقسامات التي تشقّ مختلف الدول في مواضع أخرى من أوروبا. وقد انتمت بذلك إلى دائرة التاريخ الأوروبي، وليس إلى دائرة الامبراطوريات الأوروبية.

وقعت مجموعة متنوعة من الشعوب غير الغربية في الجنوب والشرق، وما وراء الأراضي السلافية، تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية. نسخ العديد من تلك الشعوب الديموغرافيا الثقافية للإمبراطورية الإقليمية، ولكنّ بلداناً أخرى استقبلت عدداً كبيراً من المستوطنين السلافيين بحيث باتوا ينتمون إلى فئة المجتمعات المتعددة الأعراق، وتنقسم الأراضي السوفييتية غير الغربية إلى ثلاث مجموعات، تقوم أولاها على طول الحدود الجنوبية من التقدم الروسي نحو القوقاز بين البحر الأسود وبحر الأورال. وتشمل هذه المنطقة جمهوريات جورجيا وأرمينية وأذربيجان في الاتحاد السوفييتي السابق.

أما المجموعة الثانية فتظهر في آسيا الوسطى، وشرق بحر الأورال وغرب الصين. احتلت روسيا هذه الأراضي بشكل أساسي بين ١٨٦٠ و١٨٩٠، وقد تزامنت هذه الاحتلالات مع بدء عصر الإمبريالية في مواقع أخرى. وتمثل هذه المنطقة أهم مجموعة بين المجتمعات المتعددة الأعراق. في الاتحاد السوفييتي، وقد تحوّلت بعد

انقسام الاتحاد إلى جمهوريات تركمانستان وطاجكستان وقيرغيزيا وكازاخستان، الخمس المستقلة.

وتتكون المجموعة الثالثة من عدة مناطق غير سلافية، والتي عُرفت بوصفها جمهوريات ذات حكم ذاتي داخل الجمهورية الاشتراكية المتحدة الروسية / السوفييتية والتي ظلت على حالها في الاتحاد الروسي الحالي، يبلغ عدد هذه المناطق إحدى وعشرين منطقة متنوعة نسبياً، صغيرة ومتناثرة، وتشمل الشيشان التي تطالب بالاستقلال عن الجمهورية الروسية. في مطلع التسعينيات من القرن العشرين، كوّن العرق الروسي ما يزيد عن ٨٠ بالمئة من سكان الجمهورية الروسية ككل، إلا أنه يشكل غالباً أقلية داخل المناطق التي تتمتع بالحكم الذاتي، كما هو حاله في الشيشان. واتسمت جمهورياتٌ مستقلةٌ أخرى بتنوع شديد، وهي موجودة في روسيا الأوروبية كما في سيبريا. ولطالما تضمنت الكتلة الروسية، لقرونٍ عديدةٍ، مجموعةَ الست على طول نهر الفولغا إلاّ أنّ الروس يشكلون أقليةً في أربعٍ من الجمهوريات الست.

تشكّل مجتمع متعدد الأعراق في جنوب إفريقية

تأسست المجتمعات المتعددة الأعراق في إفريقيا في أقصى الجنوب وأقصى الشمال، إذ إن الهجرة الأوروبية أدت إلى تشكيل مجتمعات ثقافية أوروبية مهمة في الجزائر كما في جنوب إفريقيا وزيمبابوي. وتسبّب الانسحاب الكثيف للمستوطنين الفرنسيين من الجزائر عقب سنة ١٩٦٢ في خفض حجم المجتمع الفرنسي هناك خفضاً شديداً. تركزت المجتمعات المتعددة الأعراق المتبقية في تلك القارة في أقصى الجنوب.

شاعت عادة تقسيم العالم إلى نصفين، كما لو أنّ الأمر يقتصر على اثنين فقط. نصف متمركز في الأمريكتين – فيما يشتمل الثاني على معظم أوروبا وآسيا وإفريقية. يوجد بالطبع عدد غير متناهٍ من أنصاف الكرة المحتملة، استناداً إلى

نقطة في الفضاء يُنظر منها إلى العالم. عُزلت إفريقيا الجنوبية في الطرف الجنوبي على امتداد طويل لمساحات واسعة من الأراضي الأوروبية- الآسيوية- الإفريقية. وفي حال أدرنا العالم لوضع جنوب إفريقية في مركز مجال بصر المرء، لرأينا نصف كرةٍ أرضيةٍ مكوّنة في معظمها من الماء. وفي الواقع، تقع جنوب إفريقية عند إحدى نهايات الأرض من أي جهةٍ نظرت إليها.

بحلول القرن السابع عشر، عندما استوطن الأوروبيون للمرة الأولى على الساحل، انقسمت جنوب إفريقية لغوياً إلى شعبٍ ناطقٍ باللغة الخويسانية KHOISAN في الجنوب الغربي، والناطقين بلغة البانتو في الجنوب الشرقي وهم من تنتمي لغتهم إلى إفريقية الاستوائية. مارس الناطقون بلغة البانتو، بشكل رئيس، الزراعة بالإضافة إلى جزء مهم عمل في تربية المواشي، وقد كانوا مغايرين لشعب الخويسان الذين كانوا ينطقون باللغات الصوتية. انقسم شعب الخويسان بين الناس الذين كانوا يمارسون الصيد والغزو، وبين الخويخول البدو الذين كانوا يعيشون أساساً على تربية الماشية. عكست هذه الاختلافات الثقافية فروع البيئات الرئيسة الثلاث وهي الزراعة المختلطة، والزراعة وتربية الماشية، والصيد، غير أن قروناً من التفاعلات حول أطراف المجموعات الثلاث الأخرى أنتجت درجةً كبيرةً من التزاوج المتداخل والمزيج الثقافي. تعدّ الانقسامات العرقية المعروفة حالياً ضمن هذه المجموعات الأساسية حديثة العهد بما أنها لا تعود إلى ما يزيد على بضعة قرون.

في منتصف القرن السابع عشر، بدأ الأوروبيون يفدون إلى مقاطعة الكتاب الغربية في جنوب إفريقية، وهما مجتمعان ناطقان باللغة الإفريقانية انحدر أحدهما أساساً من العرق الأوروبي، فيما تكوّن الآخر من شعب الكاب، وهو مزيج عرقي وثقافي جمع بين شعب الخويسان الأصلي، والمهاجرين من أوروبا، وشرق إفريقية، وأجزاء مختلفة من آسيا. وفي القرن الثامن عشر وما بعده، وصلت مجموعتان أخريان من المهاجرين، ونما الأوروبيون الناطقون باللغة الانكليزية، والأفارقة الناطقون بلغة البانتو القادمون أساساً من مقاطعة الكاب الشرقية.

في مقاطعات أخرى من جنوب إفريقيا، ولّدت تحركات شعبية أخرى أشكالاً متنوعة من الأنماط الأخرى التي تعايشت فيها مجتمعات ثقافية متنوعة جنباً إلى جنب. استقر الأوروبيون من الناطقين باللغة الانكليزية والإفريقيانية، على السواء، في جيوب موزعة في مختلف أنحاء البلاد. ذهب الإنكليز أولاً إلى الكاب الشرقي، ومن ثم إلى ناتال، وفيما بعد إلى المدن التي تركز فيها النمو الاقتصادي. ولم يكن جميع المهاجرين الذين انضموا إلى جنوب إفريقية الناطقة بالإنكليزية، من بريطانيا حصراً. فقد وفد العديد منهم من القارة الأوروبية، ولكنهم اندمجوا لغوياً وثقافياً، فور وصولهم إلى جنوب إفريقيا، مع الناطقين باللغة الانكليزية الموجودين في البلاد عوضاً عن الاندماج مع الأفارقة.

الناطقون باللغة الإفريقانية البيض انتقلوا أيضاً من موطنهم الأصلي في الكاب. في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر، نقلتهم حركة الهجرة التي أطلقت عليها تسمية «الهجرة الجماعية إلى الأراضي المفتوحة» حيث أقاموا جمهورية الأورانج الحرة Orange free state والترانسفال، ونشروا سيطرتهم الاقتصادية والسياسية على الأغلبية الإفريقية. وتشكلت مجموعة المهاجرين الرئيسة الأخيرة من الهنود الذين وصلوا، بشكل رئيس، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى ساحل الناتال على المحيط الهندي على أنهم عمال يعملون لأجل معيّن indentured في حقول قصب السكر. وبحلول التسعينيات من القرن العشرين، نمت ذراريهم وشكّلت مجتمعاً بلغ عدده أقل من مليون نسمة، أي ما نسبته ٣ بالمئة من السكان.

نتيجةً لهذه الهجرات المختلفة، تناثرت مجتمعات المهاجرين المتنوعة هنا وهناك في جيوب موزعة في مختلف أنحاء المناطق الريفية والمدن. وبدروها، نزعت الشعوب الإفريقية للتمركز العرقي. عندما تحرك الأوربيون نحو الداخل، استولوا على أفضل الأراضي، علماً بأن الأفارقة ظلوا يقومون بمعظم أعمال الفلاحة. واستقر الأوروبيون في المدن التي تمركزت فيها المناجم والصناعة. وفي مطلع القرن العشرين، حدّدت حكومة جنوب إفريقية بعض المناطق بوصفها محميات تعود

ملكيتها الحصرية إلى الأفارقة الذين مُنعوا من امتلاك أراضٍ في مناطق أخرى. ومع الوقت، أصبحت هذه المحميات تعرف بأنها المواطن العرقية لكل من المجموعات اللغوية الخاصة كالزولو والخوصا، وتسوانا إلى آخره. خُصِّص القسم الأكبر من الأراضي للبيض، ولكنّ هؤلاء كانوا لا يزالون بحاجة للعمال الأفارقة، ولذلك فإن غالبية سكان جنوب إفريقية «البيضاء» ظلوا في الواقع، من الأفارقة.

إقامة مجتمع متعدد الأعراق في آسيا الوسطى:

لا يمكن اعتبار آسيا الوسطى إحدى نهايات كوكب الأرض، إذ إنها في منتصف أوسع رقعة من الأراضي التي تقع تاريخياً على تقاطع طرق التبادل بين الهند والصين وأوروبا والشرق الأوسط. وفي حال قُلِبَ الكوكب بحيث أصبح مركزه في آسيا الوسطى، عند نقطة مثل مدينة سمرقند، فإنّ نصف الكرة الأرضية التي يمكن رؤيتها عندئذٍ ستكون المناطق المأهولة الأكبر هي المسكونة، وحتى نهاية الألفية السابقة، كان المهاجرون ينتقلون براً بشكل أساسي، وليس بحراً، وقد عبر عدد كبير منهم آسيا الوسطى. ونتجت عن ذلك سلسلة من شعوب آسيا الوسطى التي فاقت شعوب جنوب إفريقية تنوعاً واختلاطاً ثقافياً.

على غرار ما حدث في جنوب إفريقية، فصل الانقسام الأكثر ثباتاً، على مر الزمن، بين البدو الرحل والمزارعين المقيمين. عاش البدو الرحّل بشكل رئيس في المناطق القاحلة في الشمال والغرب، فيما سكن المزارعون المقيمون في الجبال الواقعة في الشرق والجنوب أو على طول الأنهار المتدفقة نحو بحر الأورال. لم تكن الأراضي توفِّر غير الخيارات البيئية، ولم تكن السهول القاحلة تناسب إلا البدو الرحّل العاملين في تربية الماشية. وعندما احتل البدو أودية الأنهار، كما كان يحصل بين الفينة والفينة، لم يجدوا أمامهم سوى خيار الأخذ من جيرانهم المستقرين تقنيات الزراعة وجزءاً من ثقافتهم.

لا يمكن تقسيم شعب آسيا الوسطى. من الناحية الثقافية والتاريخية، إلى الجمهوريات السوفيتية الخمس المعترف بها حالياً على أنها دول مستقلة، كما لا

يمكن تقسيم شعب جنوب إفريقية من الناحية الثقافية، إلى «القبائل» التي اعترفت بها حكومة التمييز العنصري في جنوب إفريقية. مال سكان آسيا الوسطى للتشبه، من حيث المظهر، بمزيجٍ جمع بين الشكل الشبيه بالمغول المسيطر في الشرق والشمال وبين النمط الشبيه بالقوقازي أو الإيراني المسيطر في الجنوب والغرب. علماً بأن الانقسامات اللغوية لا تتبع على الدوام الشكل الخارجي. تنقسم لغات آسيا الوسطى إلى كل من اللغة المغولية والتركية، وعائلات اللغة الإيرانية، المشوبة مجدداً بنزعة اللغات الإيرانية للسيطرة على المناطق الجنوبية الغربية الممتدة نحو الحدود مع إيران. فيما تسيطر اللغات الأخرى على المناطق الممتدة في الشمال والشرق. لم تكن أي من هذه المناطق تنطق بلغة واحدة معينة قبل الغزو الروسي أو بعده واكتفت فترة الحكم الروسي بإضافة عنصر سلافي مغاير إلى هذه المناطق المختلطة ثقافياً.

منذ مطلع القرن السابع عشر، شرع المستوطنون الأوروبيون ينسلّون لداخل آسيا شرق الأورال وشمال كازاخستان، إلا أنّ حركة النزوح باتجاه آسيا الوسطى لم تبدأ فعلاً سوى بعد الخمسينيات من القرن التاسع عشر. وعلى غرار ما حدث في جنوب إفريقية، اتخذت مراحل الاستيطان أشكالاً متباينة وولدت نتائج متنوعة. حدثت الموجة الأولى خلال العقود الأربعة الأخيرة تقريباً التي أعقبت الحرب العالمية الأولى عندما انتقل المزارعون الروس والأوكرانيون إلى المناطق التي ستعرف فيما بعد بكازاخستان الشمالية حيث كان من الممكن ممارسة الزراعة المعتمدة على الحرث. وابتداءً من سنة ١٩١١، شكل السلافيون نسبة ٤٠ بالمئة. وفي سنة ١٩٨٩، بلغ عدد الروس بين سكان كازاخستان نسبة ٤١ بالمئة فيما شكل الأوكرانيون نسبة ٦ بالمئة. أما الكازاستانيون أنفسهم فقد تدنى عددهم إلى ٣٨ بالمئة في البلاد التي حملت اسمهم (الجداول ١-٤).

إن نسبة المستوطنين، بالمقارنة مع عدد سكان كازاخستان الإجمالي، أقل ثباتاً مما بدت عليه بين سنتي ١٩١١و١٩٨٩. لقد اتسمت فترة حكم ستالين باضطرابات شديدة وارتفاع في نسبة الوفيات. وبين سنتي ١٩٢٦و١٩٣٩، أي في فترة التنظيم

المفروض وفقاً للمبادئ الجماعية، خسرت كازاخستان ظاهرياً مليون نسمة، بل ربما ربع عدد سكانها الإجمالي. فقد توفي بعضهم إثر خسارة ماشيتهم. فيما فرّ غيرهم بكل بساطة. فالبدو سريعو الحركة وكل من يرغب بالهروب من استيطان قسري يستطيع الانتقال إلى كسينيانغ Xinjiang غربي الصين التي كانت تمثل بلادهم ثقافياً وفيها يظلون في موقف يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم عند تحسن الأوضاع في كازاخستان. في هذه الأثناء، واصل المزارعون الروس والأوكرانيون تقدمهم نحو داخل البلاد.

التوازنات العرقية في آسيا الوسطى السوفييتية والدول التي خلفتها الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية

	عدد السكان بالملايين	المجموعات العرقية	النسبة المئوية للروس في سنة ١٩٩١
تركمانستان	٣,٥	تركمانيون ٦٨٪ روس ١٣٪ أوزبكستانيون ٩٪	٩٪
أوزبكستان	١٩,٦	أوزبكستانيون ٦٩٪ روس ١١٪ تتر ٤٪ كازاخستانيون ٤٪	٩٪
طاجكستان	٥	طاجيك ٥٩٪ أوزبكستانيون ٢٣٪ روس ١٠٪	٧٪
قيرغيزيا	٤,٢	قيرغيزيون ٤٨٪ روس ٢٨٪ أوزبكستانيون ١٢٪	٢١٪
كازاخستان	١٦,٥	كازاخستانيون ٣٨٪ روس ٤١٪ أوكرانيون ٦٪	٣٧٪

المصدر: الكتاب السنوي للاتحاد السوفييتي ١٩٨٩، بيانات ١٩٩١

شكلت حركات الهجرة الروسية والأوكرانية الأخرى التي تقدّمت أكثر نحو الجنوب وصولاً إلى منطقة الواحات، على طول نهري سير داريا وأمو داريا (سيمون وجيجون) عملية مغايرة وقعت بتوقيت مختلف. فقد وصل بعض السلافيين قبل الحرب العالمية الأولى وعملوا إداريين وجنوداً وتقنيين وتجاراً، إلاّ أنّ عدد الروس، بالنسبة لعدد سكان ما كان يعرف بآسيا الوسطى السوفييتية، لم يتعدّ ٦ بالمئة في سنة ١٩١١. وقد كانت هذه النسبة مركَّزةً في الشمال داخل حزام يتوسّط بحيرة بلقاش والحدود الصينية، فظلّ الجنوب إمبراطورية إقليمية. لهذا السبب، كان كل من تجارب وخيوه خاضعتين، بشكل غير مباشر فقط، لحكم القيصر في تلك الفترة.

جرى التحرك السكاني الكثيف للروس وغيرهم من الأوروبيين نحو المناطق الجنوبية من جمهوريات آسيا الوسطى أساساً عقب الحرب العالمية الثانية. وفي نهاية الحقبة السوفييتية، بلغ العدد الإجمالي للروس في المقاطعات الثلاث الأكثر غوراً نحو الجنوب حوالي ١٢ بالمئة من العدد الإجمالي، أو حوالي النسبة المماثلة لعدد الفرنسيين في الجزائر عند نهاية الحكم الفرنسي. ولم يكن أغلبهم من العمال أو المزارعين على شاكلة المستوطنين في كازاخستان، بل كانوا تقنيين وبيروقراطيين متعلمين نسبياً ويتقاضون أجوراً مرتفعة نسبياً.

الديموغرافيا المقارنة: جنوب إفريقية وآسيا الوسطى:

على الرغم من التنوع الداخلي الضخم في الديموغرافيا الثقافية في كل من جنوب إفريقية وآسيا الوسطى، إلا أن الأنماط الاجتماعية المميزّة لهاتين المنطقتين متشابهة إلى حد كبير. في سنة ١٩٨٨، بلغ عدد سكان آسيا الوسطى السوفييتية ٤٩ مليون نسمة، أو عندما كان الأوروبيون يشكلون نسبة ٢٥ بالمئة. وفي سنة ١٩٨٧، بلغ عدد سكان جنوبي إفريقية الإجمالي ٣٥ مليون نسمة، اعتبر ١٤ بالمئة منهم من البيض. وتعدّ النسبة الأكثر روزا في جنوب إفريقية، لأغراض معينة، هي نسبة عدد السكان ذوي الثقافة العربية سواءٌ كانوا من البيض أم من الزنوج، والذين وصلت نسبتهم، في سنة ١٩٨٧، إلى ٢٣ بالمئة من العدد الإجمالي.

خلال العقود الأخيرة، تماثلت معدلات النمو السكاني التفاضلي للأوربيين وغير الأوربيين في جنوب إفريقية وآسيا الوسطى، إلا أنّ عدد غير الأوروبيين نما بشكل أسرع من عدد غير الأوربيين. وبما أنّ الفئتين شكلتا جزءاً من بيئة أمراض المنطقة الأوروبية- الآسيوية- الإفريقية الكبرى، لم يسبب وفود المستعمرين الأوروبيين القضاء على السكان الأصليين كما حدث في الأمريكيتين. إلا أنّ مرحلتين ديموغرافيتين متباينتين حدثتا في آسيا الوسطى وجنوب إفريقية على حد سواء. وصولاً حتى حوالي ١٩٥٠، تزايد المستوطنون عدداً ونسبةً بالمقارنة مع عدد السكان الإجمالي. تأتي هذه النتيجة جزئياً عن الهجرة، كما أنّ مجتمع المستوطنين كان يتبع نظاماً غذائياً ورعايةً طبيةً أفضل. في آسيا الوسطى وخلال فترة حكم ستالين، عانت الشعوب غير السلافية أكثر من السلافيين من الصراعات التي دارت حول التنظيم وفقاً للمبادئ الجماعية. ونتيجةً لذلك، ارتفع عدد السكان الأوروبيين في كل أنحاء آسيا الوسطى من ٦ بالمئة في الإجمال في سنة ١٩١١ إلى ٣٠ بالمئة من العدد الإجمالي سنة ١٩٩٥، إلا أنه بُعَيْد سنة ١٩٥٠، بُطئت عجلة معدل نمو السلافيين، وبدأ الطور الديموغرافي الأحدث. وزادت الهجرة المتواصلة مدة من الزمن، النمو الطبيعي المتدني كما أنها أوصلت عدد السكان الأوروبيين إلى ذروتها حوالي ٣٣ بالمئة في حوالي ١٩٧٠، ثم تدنت بعد ذلك التاريخ إلى أن بلغت في سنة ١٩٨٩ نسبة ٢٥ بالمئة. عادل معدل نمو السكان في الجمهورية الروسية ٦,٨ في الألف، فيما تراوحت معدلات النمو في جمهوريات آسيا الوسطى الخمس بين ١٨,١ في الألف في كازاخستان وصولاً إلى ٣٥,٢ في الألف في طاجكستان. انبثق، نتيجة لذلك، نمط شديد التباين للمجتمع المتعدد الأعراق المصوّر في الجدول ٤,١ في سنة ١٩٨٩، مثلت المجموعة العرقية المحلية المهيمنة التي أضفت كل منها اسمها على كل جمهورية، الأغلبية في كل جمهورية باستثناء كازاخستان، ولكنها لم تتعد ٧٠ بالمئة من العدد الإجمالي في أي مكان. شكلت الأقلية الروسية ١٠ بالمئة على الأقل في كل الجمهوريات كما أنها مثلت ثاني أكبر المجموعات العرقية عدداً في كل الجمهوريات

باستثناء طاجكستان حدثت تقلبات مماثلة في نسبة عدد المستوطنين في جنوب إفريقية، كما يبينها الجدول ٢, ٤ في سنة ١٨٧٠، بلغ عدد البيض نسبة ١٧ بالمئة من العدد الإجمالي، وقد شكّل البيض الملوَّنون سوياً نسبة ٢٧ بالمئة. بحلول سنة ١٩٨٧، أشار عدد الأفارقة المتزايد إلى أن عدد البيض وحدهم انخفض إلى ١٤ بالمئة من العدد الإجمالي فيما انخفض عدد البيض الملوّنين سوياً إلى ٢٣ بالمئة.

في جنوب إفريقية وآسيا الوسطى على حد سواء، لم يتصف توزيع المستوطنين بالتساوي. اكتنفت بعض المناطق، من قبيل كازاخستان الشمالية أو مقاطعة الكاب الغربية، ظروف المستعمرة الاستيطانية الحقيقية. أما في المحميات الأصلية التي أعيدت تسميتها مستوطنات في جنوب إفريقية، فقد تدنى عدد السكان الأوروبيين إلى أقل من ١ بالمئة من العدد الإجمالي، كما حصل في الأجزاء الريفية الجنوبية من آسيا الوسطى.

الجدول ٢: عدد سكان جنوب افريقيا حسب العرق ❖

الفئة	العدد	بالمئة
الأفارقة	٢٥,٩٨١,٦٣٥	٧٤,٥
البيض	٤,٩١١,٠٠٠	١٤,١
الزنوج	٣,٠٦٩,٠٠٠	٨,٨
الهنود	٩١٣,٠٠٠	٢,٦
المجموع	٣٤,٨٧٤,٦٣٥	١٠٠

(❖) تقديرات بتاريخ يونيو ١٩٨٧

المصدر: ليغوم كولين، السجل الإفريقي المعاصر، ١٩٨٧-١٩٨٨

المتغيرات في التعليم والثقافة:

اتبعت التغييرات التي أُدخلت على الثقافة، في كل من آسيا الوسطى وجنوب إفريقيا، وتيرةً مختلفةً ووسائل مغايرة. فقد بلغت سرعةً قصوى بين كل من الآسيويين والأفارقة الذين انتقلوا إلى المدن بحثاً عن فرص العمل. وصل التواصل الثقافي المتبادل إلى أكثر درجات النمو الاقتصادي بروزاً في هذه المناطق، إلا أنّ الاحتكاك الثقافي المتبادل اتسم أيضاً بالنمو القوي في هذه المناطق أيضاً. وعلى غرار ما حدث في شتى أنحاء العالم في القرن العشرين. أُججت مشاعر الهوية العرقية تأجيجاً في المجتمعات التي اتصفت باختلافٍ عرقي بارز. أدرك الحكام الأوروبيون في آسيا الوسطى مشكلات النزاعات العرقية. وسعت حكومات جنوب إفريقية لتحديد المشكلة على أنها مشكلة عرقية. أما السوفييت، فقد اعتبروها «مشكلة أعراق» لكن فيما يختص بمسائل أخرى، فقد فهمت الحكومات أن كلاً من السياسة التعليمية والسياسة الدينية شكلتا مجالين ترتبط القرارات التي تتخذها الحكومات بشأنهما بالتغير الثقافي ارتباطاً شديداً، ظاهرياً. عقب الثورة الروسية، بات كل مواطن سوفييتي مساو – من الناحية النظرية – لغيره من المواطنين. وكان في نية السوفييت تعليم الجميع بمستوى عام يديره الحزب الشيوعي. جند هذا المجهود مؤسسات من قبيل الطلائع الشابة Young pioneers المشابهة لكشافة الصبيان في أوروبا الغربية. بالإضافة إلى إدارة كل وسائل الاتصال، انطلاقاً من الصحافة وصولاً إلى الأدب والفنون، والخبرة المشتركة الناجمة عن التجنييد الإجباري لكل الشباب، والضغوطات غير الرسمية في مواقع العمل، وبالطبع النظام التعليمي الرسمي على كل المستويات. ولطالما اعتبر التفوق الروسي على الثقافات السوفييتية الأخرى أمراً مسلَّماً به، في أغلب الأحيان، وإن لم يجد دمجه بوعي في السياسات التعليمية.

في مطلع القرن التاسع عشر، في أوروبا الغربية وروسيا السابقة للثورة على حد سواء، شدّدت النظرية الخاصة بالتعليم المناسب للإمبراطورية في بلاد ما وراء البحار على قيمة نشر المدينة بحيث تشمل السكان الأصليين، ولكن غالباً ما أُلقيت

هذه المهمة على عاتق الجهود الفردية التي كانت تبذلها المجموعات التبشيرية. لقد كان قراراً منطقياً اتخذ في فترة كان التعليم الرسمي، في أوروبا ذاتها، يطبَّق تدريجياً، وقد كان التعليم الرسمي الجماعي مكلفاً، بالاستناد إلى المطالب الأخرى التي أرهقت الميزانيات الاستعمارية. لم يفكر سوى عدد قليل بإمكانية إنفاق أموال ضرائب رعايا الدولة الأم على التعليم في المستعمرات. لقد كانت فكرة نشر المدنية، في أغلب الأحيان، تبريراً للإمبراطورية أكثر منها سياسة جدية. ولو أن نية نشر الثقافة الأوروبية اتخذ منحى جدياً، لكان ينبغي الانطلاق من التعليم الابتدائي المجّاني والإلزامي، وتتبعه درجةٌ معقولةٌ من الانتساب المجاني إلى المدارس الثانوية والجامعات للأطفال المتفوقين. في الواقع، لم تقدم أيٌّ من الامبراطوريات الإقليمية الرئيسة اقتراحاً مماثلاً، حتى ولو لم تلمح إليه من بعيد. وحدها الولايات المتحدة بين الامبراطوريات الغربية التي تحركت في هذا الاتجاه في هاواي وبورتوريكو، بالإضافة إلى جهد أكثر تواضعاً في الفيليبين.

تُعدّ جنوب إفريقيا مثالاً على هذا الإهمال الواسع النطاق. في مطلع القرن التاسع عشر، وقرت الحكومات درجةً ضعيفة، من التعليم العام للأطفال بمختلف أعراقهم. وحتى الخمسينيات من القرن العشرين، لم يكن الأفارقة يحظون إلاّ بالتعليم الذي تقدمه الإرساليات المسيحية، كما أنه لم يكن إجبارياً ولا مجانياً؛ لأنّ الإرساليات كانت تتقاضى، في أغلب الأحيان، أقساطاً مدرسية، اهتمت الحكومة، في تلك الفترة فقط، بالتعليم العام للأفارقة وفقاً لقوانين البانتو للتعليم. وقد كانت تهدف من جراء ذلك لتقديم مستوى متدنٍ من التعليم للأفارقة ومستوى أفضل منه قليلاً للملوَّين والآسيويين.

من الناحية النظرية، كان هذا التباين منطقياً. ففي كل الأحوال، من المستحيل أن يتبوأ الأفارقة المراكز التي تتطلب مهارات عالية. وقد يكون من غير المنتج تعليمهم بحيث يحتلون مراكز مخصصة للآخرين. لكن مع دنو أواخر الستينيات من القرن العشرين، طرأت بعض التغييرات على هذه السياسة عندما اكتشفت حكومة التمييز

العنصري بأنّ الدولة الصناعية تستلزم قوة عاملة تتمتع بمستوى أفضل من التعليم، ومع ذلك ظلت الاختلافات الحادة في نوعية التعليم قائمة. في سنة ١٩٦٣، أنفقت الحكومة، في مجال تعليم البيض، مبالغ فاقت اثنتي عشرة مرة ما أنفقته على تعليم الأفارقة. وبرز الاختلاف في معدلات التعلم لسنة ١٩٨٤ فقد بلغت ٩٣ بالمئة عند البيض، و٧١ بالمئة عند الآسيويين، ٦٢ بالمئة عند الملونين و٣٢ بالمئة فقط عند الأفارقة، في تلك الفترة بالذات، تساوى معدل التعلم عند سكان آسيا الوسطى وعند البيض في جنوب إفريقية، أدخل الاتحاد السوفييتي التعليم الرسمي في آسيا الوسطى في حقبة سابقة وقد شمل نطاقاً أوسع مما قدمته معظم القوى الإمبريالية الأخرى، علماً بأن الفرص التعليمية ظلت دون مستوياتها في الجمهورية الروسية أو أوروبا الغربية. ومع ذلك، ففي سنة ١٩٣٠، حدّد الاتحاد السوفييتي هدف إقامة نظام تعليمي مجاني وإجباري للمرحلة الابتدائية في آسيا الوسطى، علماً بأن التعليم في المدارس لم يكن إجبارياً إلاّ لأربع سنوات فقط، وقد تطلب وضع هذا الهدف موضع التنفيذ وقتاً طويلاً. ولكن بحلول الأربعينيات من القرن العشرين، ارتاد المدارس حوالي ٩٠ بالمئة من الأطفال في سن الدراسة. وفتحت المجالات لارتقاء السلم التعليمي فيها أكثر من أي دولة أخرى في معظم مستعمرات إفريقية الاستوائية أو جنوب إفريقية.

الدين:

الدين ميدان رئيس آخر صاغت له الحكومات السوفييتية وحكومات جنوب إفريقية أهدافاً متباينة. كانت ديانة تبشيرية في روسيا قبل قيام الثورة، كما في أوروبا الغربية، وفي جنوب إفريقيا الخاضعة للمستوطنين. إلا أنّ المسيحيين الأرثوذكس اغتنموا بالكاد فرصة هداية سكان آسيا الوسطى للدين المسيحي. وقد واجه المبشرون المسيحيون أيضاً صعوبةً. في أغلب الأحيان، في إقناع المسلمين باعتناق الدين المسيحي في شتى أنحاء العالم.

بذل المبشرون المسيحيون جهداً على قَدْرٍ أكبر من الجدية في جنوب إفريقية، واستقبلوا بمزيدٍ من الترحيب، مع أنّ العديد من الأفارقة امتعض، مع مرور الزمن، من الحصرية العرقية للكنائس التبشيرية ومن بعض أوجه الدين المسيحي غير المتماشية مع التقاليد الاجتماعية المنشقة عوضاً عن كنائس الإرساليات الرسمية التي يديرها البيض. ومع ذلك تظل جنوب إفريقية موقعاً أحرز فيه النصارى أهم الانتصارات في إفريقية. وفي هذا الصدد، ظهر قولٌ مأثورٌ مفاده «كنا نملك في بادئ الأمر الأرض وأنتم الكتاب المقدس. أما اليوم فأنتم تملكون الأرض ونحن الكتاب المقدس». لكن حتى هذا القول المأثور لا يتصف بالدقة. فقد كان الأوروبيون في جنوب إفريقية يملكون، عند نهاية التمييز العنصري، ما يزيد المسيحيون على ٨٠ بالمئة من الأرض، ولكن حوالي نصف السكان الأرفارقة كانوا مصنفين رسمياً من فئة الوثنيين.

وعلى سبيل المقارنة، لم يكن المسيحيون الروس قد وصلوا إلى هذا المستوى من النجاح قبل قيام الثورة.

وقد كان السوفييت يميلون إلى تثبيط همة المبشرين بأي ديانة من الديانات، كما أن محاولات القضاء على الإسلام باءت بالفشل ذاته الذي لاقته الإرساليات التبشيرية في محاولات مماثلة. فضّل بعض سكان آسيا الوسطى المتعلمين، على غرار بعض الروس الذين يتمتعون بخلفية مماثلة، الانتقال إلى وضع علماني يشوبه الغموض، إلا أنّ الدين الإسلامي ظل محتفظاً بمعظم معتنقي هذا الدين في مناطق الأكثرية بل وتمكن هذا الدين أيضاً أن يجذب إليه بعض الوثنيين.

النمو الاقتصادي:

شكل النمو الاقتصادي مجالات توازت فيه إلى حد ما نوايا حكومات آسيا الوسطى وجنوب إفريقية وإنجازاتها، حازت الإنتاجية العالية على أفضلية حكومة كل من آسيا الوسطى وجنوب إفريقية، مع أن هاتين الدولتين اختلفتا، في هذا

المجال، حول طريقة توزيع الانتاج. أرادت الدولة السوفييتية، من الناحية النظرية، استخدام زيادة الموارد لأغراض حكومية تشتمل على معدلات مرتفعة من الاستهلاك الجماعي على المدى الطويل فقط. سمحت سياسة دولة جنوب إفريقية، لا بل شجعت أحياناً، تقسيم الدخل حسب العرق بحيث يُعطى القسم الأكبر للبيض، وجزءاً أصغر للهنود، وأقل بعداً للملوَّين، فيما يحصل الأفارقة على أقل قدر على الإطلاق.

واختلفت أيضاً الوسيلةُ المستخدمة لبلوغ هذه الأهداف بين الدولتين. فقد كان النظام السوفييتي في آسيا الوسطى، كما في أرجاء الاتحاد السوفييتي كافة، قائماً أساساً، على الاقتصاد الموجَّه. أما النظام المستخدم في جنوب إفريقية فقد كان رأسمالياً، ولكنه خاضعٌ لتدخُّلاتٍ حكوميةٍ شديدة هدفُها تطبيقُ الأهداف الاجتماعية للتمييز العنصري، كما كان يتضمن امتلاك الحكومة لمؤسسات اقتصادية، لاسيما الصناعات الثقيلة.

أحرز اقتصاد كل من جنوب إفريقية وآسيا الوسطى نجاحاً معتدلاً على مر العقود، وقد كان دون مستوى النجاح الذي أحرزته الدول الأكثر تقدماً، كما قد فاق ما أنجزته الدولُ الأقلُّ تقدماً. بعد الحرب العالمية الثانية بربع قرنٍ تقريباً، تفوقت آسيا الوسطى في نموها الاقتصادي على العالم الإسلامي بأسره، فيما تقدمت جنوب إفريقيا القارة الإفريقية كلها. وفي حوالي سنة ١٩٦٠، تساوت تقريباً المداخيل الفردية في آسيا الوسطى وجنوب إفريقيا. بلغت هذه المداخيل خمسة أو ستة أضعاف مداخيل الدول الفقيرة، من قبيل الهند أو الباكستان، إلا أنها لم تشكل سوى خمسُ أو سدسُ المداخيل الفردية التي تجنيها الدول الغنية مثل كندا والولايات المتحدة.

ثم وقعت الاضطرابات في مجال النفط، فتأسست منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك)، وكسبت دول الخليج العربي أرباحاً طائلةً، وظهرت اقتصادياتٌ صناعيةٌ جديدةٌ على شواطئ المحيط الهادئ.

وواصل اقتصاد جنوب إفريقية نموه بنجاح أكبر من اقتصاد معظم الدول الإفريقية في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، إلا أنه لم يصل إلى مستوى النمو الصناعي في تايوان أو كوريا لجنوبية. أما آسيا الوسطى فقد جاء بعدها بمسافاتٍ واسعةٍ، بسبب المشكلات الاقتصادية التي عانى منها الاتحاد السوفييتي ككل.

واتسم توزيع الدخل داخل حدود الاتحاد السوفييتي، مع ذلك بدرجة من المساواة فاقت ما كانت عليه داخل جنوب إفريقية. تعاون كلٌّ من الآسيويين والأوروبيين في الأجور التي كانوا يتقاضونها في آسيا الوسطى. وتشير التقديرات التي أجريت حوالي ١٩٧٠ إلى أن مستوى المعيشة كان أدنى مما هو عليه في الجمهورية الروسية بنسبة ٢٠ إلى ٢٥ بالمئة لمجرد أنّ عدداً أكبر من الناس في آسيا الوسطى يشغلون وظائف منخفضة الأجور. ومن جهة أخرى، كانت الوظائف التي تتطلب مهارات أو المرتفعة الأجور مخصصة، في جنوب إفريقية، للبيض وفقاً للقانون. بدأت بعض التغييرات تُدخل إلى هذه السياسة في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، إذ بات من المسموح للأفارقة الانتساب للنقابات، وظهرت جهودٌ هادفةٌ للمساواة في الأجور. وعلى الرغم من إحراز بعض النجاح، ظلت الصورة الإجمالية سيئةً للغاية بحلول سنة ١٩٨٧. لم يبلغ الدخل الفردي للسود حتى عُشر الدخل الفردي الذي كان يحصل عليه البيض. وبالتالي، فيما كانت جنوب إفريقية أكثر الدول تقدماً في المناطق الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، لم تزد مداخيل الأفارقة العاديين، على الدوام، عما كانت عليه في أجزاء أوفر حظاً في إفريقية الاستوائية.

القومية

كان الشعور القومي، بمعناه المعارض للحكم الأوروبي، منتشراً في العالم الاستعماري ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر. أما القومية بمعنى الولاء الدامج لأُناسٍ باللغة والتقاليد، فيمكن توقع تولدها حيثما وُجدت ثقافاتٌ مختلفةٌ في

المجتمع الواحد. كانت المجتمعات المتعددة الأعراق، من قبيل جنوب إفريقية وآسيا الوسطى، عُرضةً للقومية بمعنييها. وما كان حكام الناحيتين ليتناسوا هذه المخاطر. قبل الخمسينيات من القرن العشرين، بات من المعروف بأنّ الاتحاد السوفييتي نجح في استيعاب أغلبيات آسيا الوسطى العرقية في حين أن جنوب إفريقية البيضاء أخفقت في مسعاها هذا. اعتبر الرأي العام العالمي جنوب إفريقية الدولة المنبوذة التي تعرّضت، في آخر المطاف، لعقوبات عند محاولاتها، بوصفها حكومة أقلية، فرض سيطرة عرقية. وفي بعض الأحيان، كان الاتحاد السوفييتي يحظى ببعض الاستحسان لكونه الموقع الذي يُرحب فيه بالذين كانوا خاضعين للاحتلالات تحت راية المواطنية المشتركة مثل هاواي، ومناطق الهند وجنوب شرق آسيا الخاضعة للحكم الفرنسي، بالإضافة إلى أجزاء أُدمجت من الامبراطوريات الاستعمارية السابقة. لم يطرأ أي تغيير على الانطباع الخاص بجنوب إفريقية، إلا أنّ ما يتعلق بالاتحاد السوفييتي طُرح مجدداً على بساط النقاش على ضوء العنف العرقي الذي شهدته جمهورياته السابقة ابتداءً من جورجيا وأذربيجان وصولاً إلى داخل آسيا الوسطى، ناهيك عن مشكلات الشيشان في روسيا ذاتها.

اشتركت السياسات التي اتبعتها جنوب إفريقية والاتحاد السوفييتي في مسألة الأعراق في بعض نقاطها، وكانت كل دولةٍ منها على علم بما تقوم به الأخرى أو لا تقوم به. إلا أن السوفييت نزعوا إلى إحاطة مشكلة جنسياتهم في إطار سياسي وثقافي خاص بهم. بُعيد الثورة، شعروا بالتهديد الذي كان يسلطه عليهم ازدهار الدين الإسلامي خارج الحدود السوفييتية، وما قد ينتج عنه من قومية مضادة للاستعمار ومطالبة بالاستقلال. ومن أجل محاربة مطالب الإسلام الشاملة، حاول السوفييت تشجيع المطالبات بالقومية اللغوية على أنها شكل من أشكال سياسة فرِّق تَسُد. في سنة ١٩٢٤، قسّموا تركستان السابقة إلى الوحدات الخمس التي تشكل آسيا الوسطى الحالية. كل وحدة من هذه الوحدات أصبحت جمهورية سوفييتية اشتراكية منفصلة تمتلك مناطق تتمتع بالحكم الذاتي المستقل عن السلطات المركزية. وكان من المتوقع أن تشجع كل منها الثقافة المحلية، وتشدد بالتالي على

الاختلافات عن الآخرين، والتقليل من شأن ما قدّمه لهم المجتمع الإسلامي من دين مشترك. وسَبَّبت الاستقلالية الممنوحة في خيبة الأمل؛ لأن كلاً من هذه الحكومات كانت خاضعةً فعلياً لحكم الحزب الشيوعي السوفييتي الذي يسيطر عليه الروس. وقد تكون هذه السياسة قد خففت من حدة المشاعر المضادة للسوفييت. إلا أن الشعور بالامتعاض لم يتلاشَ من المنطقة، ولاسيما خلال فترة حكم ستالين من منتصف الثلاثينيات إلى منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، فخلال الحرب العالمية الثانية، فرّ العديد من الجنود السوفييت من آسيا الوسطى والتحقوا بالألمان.

عقب الحرب العالمية الثانية، مهّد انتعاش الازدهار الاقتصادي الطريق أمام الحكومة السوفييتية للتخفيف من الإلحاح على القوميات المنفصلة. وعوضاً عن ذلك، مالت إلى التشديد على المواطنية السوفييتية المشتركة فيما كانت تسمح، في الوقت ذاته، للقادة السياسيين المحليين بالاضطلاع بأدوار أهم في كل من هذه الجمهوريات، لكنهم شكلوا مصدراً للاضطراب فيما بعد؛ لأنّ التحكم المحلي أتاح فرصة تفاقم الفساد السياسي. وفي الثمانينيات من القرن العشرين، عندما هاجمت حركة الإصلاح السوفييتي الفساد الحكومي المنتشر في آسيا الوسطى، كما في كافة أرجاء الاتحاد السوفييتي، اعتبرت هذه السياسة أحياناً محاولةً روسيةً للقضاء على القيادة المحلية، وأجَّجت الأزمات الاقتصادية التوترات العرقية داخل الجمهوريات، وفي الحالتين كان لابد من ردٍ مشتركٍ يستند على إعادة إحياء المشاعر العرقية التي كانت مخّدرة. ولم يحلّ انقسام الاتحاد السوفييتي المشكلة؛ بل أجلها لبعض الوقت. فقد ظلت التوترات موجودة داخل المجتمع المتعدد الأعراق وإن بأشكالٍ مختلفةٍ اختلافَ كلٍ من الجمهوريات المنفصلة.

بالنسبة لجنوب إفريقية، سبَّب النجاح الظاهر الذي أحرزته سياسة القوميات السوفييتية صدمةً، في الخمسينيات من القرن العشرين، دفعت الحزب الوطني إلى تبني الفكرة السوفييتية، وإنشاء سلسلة من المستوطنات Homelands المسمَّاة بشكل شائع بانتوستان bantustans حتى إنها قلّدت السوفييت في التسمية أيضاً.

لقد كانت النيةُ وراء هذا العمل مماثلةً لنية السوفييت- أي تحويل فكر الناس من التعاضد المحتمل بوصفهم أفارقة والتشديد على الولاء المحتمل للوحدات العرقية الأقل عدداً من قبيل الخوصا، أو الزولو، أو تسوانا، وظلت الأقلية البيضاء بالتالي أقلية لكنْ الأكبر عدداً بين عدة أقليات، كما ظلت إمكانية تطبيق مبدأ فرِّق تَسُدْ سارية المفعول. طوّرت حكومة التمييز العنصري هذه السياسة من خلال إقامة جامعات منفصلة لبعض المجموعات العرقية الرئيسة-فأنشأت جامعةً على مقربة من كايب تاون للملوين وأخرى للهنود في درم، وجامعات للفروع الإفريقية الثانوية. كما أنها شجَّعت اعتماد التعليم بلغة البلاد في المدارس الابتدائية، بيد أنَّ هذه السياسة واجهت معارضةً بلغت حداً كبيراً فكان لابد من التخلي عنها.

في نهاية المطاف، هدفت سياسة المستوطنات إلى منح استقلال رسمي للبانتوستانات بالتدريج. وبالتالي كان من المفترض أن يخسر الأفارقة الذين خصّصوا لهذا المواطن مواطنية جنوب إفريقية، بغض النظر عن مدى الحقوق التي يتمعتون بها. وابتداءً من سنة ١٩٨٧، أحصي ٢٠ مليون إفريقي على أنهم يعيشون في جنوب إفريقية، ٨,٥ مليون منهم يقطنون في المستوطنات، إلا أن الرأي العام الدولي اعتبر استقلال البانتوستانات ضرباً من ضروب الخداع، ولم تعترف بهم أي دولةٍ أخرى اعترافاً دبلوماسياً.

عقب ١٩٩٠، تخلت قيادة الحزب الوطني الحاكم عن المستوطنات تماماً كما تخلت عن التمييز العنصري بشكل عام. وبعد فوز المؤتمر الوطني الإفريقي ANC في انتخابات سنة ١٩٩٤، أعيد دمج المستوطنات السابقة داخل الجمهورية. ضعُفت الثقة بقيادة البانتوستانات الإفريقية بشكل كامل واعتبرت فاسدةً على غرار قيادات الحزب الشيوعي في آسيا الوسطى. قسّم الدستور الجديد لسنة ١٩٩٦ البلاد إلى تسعة أقاليم عوضاً عن الأربعة السابقة، علماً بأن جنوب إفريقيا ظلت دولةً واحدةً لا اتحاداً فدرالياً مثل كندا وأستراليا.

أخفقت سياسة «فرِّقْ تَسُدْ» في جنوب إفريقية، فيما نجحت جزئياً في آسيا الوسطى بفضل ظهور الدول الخمس المستقلة الجديدة عقب انقسام الاتحاد السوفييتي. فقد واصل المزيد من الأفارقة مطالبتهم بالحصول على الحقوق السياسية في جنوب إفريقية ككل، عوضاً عن الاكتفاء بقدرٍ أقلّ من الامتيازات في منطقة محدودة. أتاح إضعاف سياسة التمييز العنصري للمؤتمر الإفريقي فرصة البروز كصوت إفريقي مهيمن، وتمسك المؤتمر بهدف إقامة دولة ديموقراطية في جنوب إفريقية panafricanist الذي طالب لفترة من الزمن بمنح حقوق سياسية كاملة للأفارقة فحسب. وكان من المعارضين أيضاً حركة زولو إنكاتا بقيادة الزعيم مانغوسوتو توتيليزي الذي مثل الصوت السياسي البارز الوحيد المطالب بجنسيات عرقية مميَّزة كتلك التي توجد في آسيا الوسطى. وقد يكون الوقت مبكراً للغاية إصدار تنبؤات موثوق بها. ولكن الوضع بدا، في نهاية التسعينيات من القرن العشرين، كأن القومية العرقية قد أحرزت فوزاً في آسيا الوسطى، في حين أنها أخفقت في جنوب إفريقية في مواجهة إيمان مستمر للأغلبية في جنسية جنوب إفريقية غير عنصرية وأوسع نطاقاً.

كانت المجتمعات المتعددة الجنسيات ناتجاً ثانوياً بارزاً في عصر بناء الامبراطوريات الغربية. ولم تخفف النهاية الرسمية للقوة الاستعمارية الأوروبية مشكلة الصراع العرقي الذي تسببت به. وبعد التاريخ الحديث لكل من جنوب إفريقية وآسيا الوسطى دلائل كافية على ذلك. ومن جهةٍ أخرى، يشكل النزاع العرقي مشكلةً عانى منها العالم في الماضي القريب، ومشكلة يسهل التنبؤ بها تتغلغل نحو المستقبل. لقد كان عمر الامبراطوريات الأوروبية عنصراً مساهماً مهماً، ولكنه لم يكن العنصر الوحيد. كان لابد من اعتبار بدء العصر الصناعي، وما صاحبه من عولمة النشاطة البشري، ذا تأثيرٍ مهيمن على مجموعة ضخمة من التغييرات الثقافية والنزاع الثقافي. أجبر الشعب على اتخاذ قرارات فردية حول إجابته، وتباينت قراراته كما سنرى في الفصل التالي الذي يطرح مثال المكسيك.

٥

تغير الثقافة في المكسيك

من بين الأخطاء المتخلفة الناتجة عن تقسيم العالم إلى مناطق ومجالات -وهو تقسيمٌ شاع استخدامه في حقبةٍ سالفة- وجهة نظر تفيد بأنّ تاريخ الأميركتين هو مثل تاريخ الولايات المتحدة ومختلف عن تاريخ القارات الأخرى. في الواقع، تزيد أوجه الشبه بين كندا والولايات المتحدة من جهة مع أستراليا ونيوزيلاندة من جهة أخرى عما هي عليه بالمقارنة بين معظم المناطق الاستوائية مع إفريقية كما مع أوروبا. وتقاسمت المجتمعات المتعددة الأعراق في أمريكا الهندية بعض أوجه الشبه مع المجتمعات الأخرى المتعددة الأعراق في آسيا الوسطى أو إفريقية، أكثر بعداً، في الواقع، مما كانت تتشابه فيه مع مجتمعات المستوطنين في أمريكا الشمالية أو مع مجتمعات الكاريبي الزراعية.

ابتدأ الغزو الأوروبي للمكسيك والبيرو في العشرينيات من القرن السادس عشر، في حين أن الغزو الأوروبي لشمال إفريقية وجنوب إفريقية الناطقة بلغة البانتو لم ينطلق قبل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. أما الغزو الروسي لآسيا الوسطى فقد تأخر أكثر بعد، وجرى في الستينيات من القرن التاسع عشر. ولذلك فإن الثقافات الأمريكية الهندية، والأوروبية كانت على اتصال إحداها بالأخرى داخل الإمبراطورية الإسبانية لحوالي ثلاثة قرون قبل أن يبدأ فعلاً الاختراق الثقافي الأوروبي لإفريقية وآسيا الوسطى.

كل الثقافات تتغير مع مرور الزمن، ولكن ثمة فكرة واحدة مفرطة في بساطتها تختص بالتغير في الثقافات الأمريكية الهندية وتفيد بأنها تقبلت تدريجياً عناصر ثقافية من جيرانها الأوروبيين ضمن عملية غالباً ما يُطلَقُ عليها: وصف التثاقف

acculturation. وهذا ما فعلْتُهُ في بعض الأحيان. إذن الثقافات الأوروبية/ الأمريكية كانت تقتبس الأنماط الهندية، في الوقت ذاته، ولذلك كانت الثقافتان تتغيران باستمرار وليس لأسباب داخلية فقط. في بعض الأماكن، من مثل المكسيك الوسطى، نشأ نتجةً لذلك، بعد أكثر من أربعة قرون، نمطٌ ثقافيٌّ مسيطرٌ لم يكن هندياً ولا أوروبياً بل مكسيكياً. وقد أطلقت عليه أحياناً تسمية الميستيزو أو المختلط، واستخدم المصطلحُ ذاتُهُ للإشارة إلى أشخاصٍ من أعراقٍ مختلطةٍ تكونُ عادةً إسبانيةً أو أمريكيةً- هندية. اختلطت الأعراق بالفعل. بيد أنّ النتائج كانت المزيج الثقافي الجديد بين الإسبان والهنود. ويحمل مصطلح لادينو ladino الإسباني معاني أخرى. لكنْ نستطيع استخدامَهُ في هذا الصدد للإشارة إلى الخليط الثقافي الهندي- الإسباني الذي أصبح مكسيكياً.

على غرار كلمة حديث modern، تحمل كلمة لادينو ladino معاني مختلفة باختلاف الأزمنة والأمكنة. لم تكن ثقافة اللادينو المحدثة مجرد استمرار بسيط للتشكيلة المتجانسة الأصلية التي ابتدأت في وسط المكسيك في الثلاثينيات من القرن السادس عشر، ولم يكن شكل ثقافة لادينو جامداً لم تدخل عليه أي تغييرات.

فقد ظلّت ثقافة لادينو الأولى تتغير، على غرار غيرها من الثقافات. واكب هذا التغيير النسخة الإسبانية للثقافة الأوروبية ومجموعة من الثقافات الهندية التي كانت تتعرض أيضاً للتغيير. وجرت هذه العملية التي خضعت لدراساتٍ دقيقة في السنوات الأخيرة، بسرعة فائقة في وسط المكسيك واستمرت لفترة طويلة لكنها ليست موضوع بحثنا هذا[1].

يُعنى هذا الفصل ببعض المجتمعات الهندية الأصل عدداً ومركزيةً والتي تمنت من الاحتفاظ بنسخ متطورة عن ثقافتها الأصلية حتى القرن التاسع عشر، وحتى

(١) انظر على سبيل المثال:

James Lockart, the Nshuan after the congurt : Asocial and cultural history of the Indiana of central Mexico, sixteenth thronght the eighteenth chm\ntsrid (stant ford : stan (ford pren,1992

تاريخنا الحالي من بعض الأوجه. لفت مجتمعان من هذه المجتمعات المذكورة الانتباه على الخصوص، بسبب صراعها الطويل الأمد بغية الحفاظ على أغلى ما تتميز به طريقة عيشها القديمة. فكلاهما كانا بعيدين عن وادي المكسيك، وهو المركز الحقيقي للقوة والتأثير في إسبانيا الجديدة. أحد هذين المجتمعين كان مجتمع المايا عند شبه جزيرة يوكاتان. أما الآخر، وهو مجتمع أقل عدداً، فمجتمع الياكي في سونورا، والذي كان يسكن أصلاً وادياً واحداً ينساب فيه نهر الياكي غرباً انطلاقاً من سييرامادري حتى خليج كاليفورنيا.

المواجهة مع إسبانيا:

حدثت هذه المواجهة مع إسبانيا على مراحل تشابهت في معظم أنحاء الأراضي التي ستكون أمريكا الإسبانية. امتد الغزو الأول للمناطق الوسطى على مدار العقود من العشرينيات إلى السبعينيات من القرن السادس عشر. وأعقب ذلك حقبة اتسمت بالاستقرار، وأطلقت عليها غالباً تسمية الحقبة الاستعمارية في التاريخ الأسباني- الأميركي. إلا أنّ نهاية الحكم الإسباني في مطلع القرن التاسع عشر لم يكن سوى حلقة في سلسلة من التغييرات التي أصابت العلاقات الهندية- الإسبانية في تلك الفترة تقريباً، بدءاً من ستينيات القرن الثامن عشر، بسبب إصلاحات البوربون» كما عرفت بها تلك المتغيرات، تيمناً بالسلالة الإسبانية. ركزت هذه الإصلاحات على إعادة ترتيب إداري لإمبراطورية إسبانيا، بما فيها منح الرعايا الإسبان المزيد من الحرية في تعاملاتهم التجارية بين المستعمرات.

أما الهنود الخاضعون للحكم الإسباني، فقد ارتبطت هذه الإصلاحات بالنسبة لهم، في أغلب الأحيان، بما يُعرف بالغزو الثاني حيث سعى الإسبان، عقب فترة من الإهمال الحميد، لإحكام سيطرتهم على المجتمعات الهندية، وظلت جمهورية المكسيك مصرةً على مواصلة اعتماد سياسات مماثلة بعد الانفصال عن إسبانيا. ومن ناحية أخرى مثَّل الغزو الثاني بأشكاله المتباينة التي اتخذها في كافة أنحاء

أمريكا اللاتينية مقابلاً إقليمياً لعمليات الضم الأوروبية التي احتوت على قَدْر أكبر من العنف في آسيا وإفريقية. وقد أطلقت القوة الدافعة النهائية، في كلتا الحالتين، بدايةُ العصر الصناعي.

اختلف تأثير عمليتي أمريكا الأصلية باختلاف المناطق، حتى داخل حدود ما سوف يصبح المكسيك. اتسم الغزو الأول بمزيدٍ من الحدة في وسط المكسيك. فقد هدم الإسبان تينوشتيتلان، عاصمة الأزتيك، وشيّدوا في موقعها مدينة موسكو التي ظلت أهم مركز حضري في الأميركتين. أما بالنسبة للمكسيك، فقد سببّ الغزو الأول أكبر قدر من التلف الفعلي. إذ بلغت الأمراض الغربية ذروتها في هذه المنطقة، كما وصل التأثير الثقافي للإرساليات الإسبانية إلى أوج تركيزه.

يعتبر تقبّل المسيحية في وسط المكسيك أحياناً، نتيجة الجهود التي بذلتها الإرساليات التبشيرية وتوِّجت بالنجاح أكثر من أي مكان آخر في العالم. إلا أن التقبّل الرسمي قد يكون سطحياً كما يحصل في أماكن أخرى خلال انتشار الديانات العالمية. لقد تغلغل قدرٌ كبيرٌ من الديانة القديمة في المسيحية المكسيكية، في تلك الفترة، بحيث بات من الممكن أن يعتنق العديد الديانة المسيحية دون تحطيم المعتقدات العميقة التي تنتمي لأسلوب العيش الهندي. حجبت الأوبئة الخطيرة التغير الديني بحيث بات من الصعب تحديد المسار الذي كان من الممكن أن تسلكه في غيابها. ولكن مع انخفاض عدد السكان، ذوتْ أوجهٌ عديدةٌ من ثقافات وسط المكسيك وتلاشت مع أن غيرها ظلّ سارياً على شكل مساهماتٍ رئيسة في ثقافة مختلطة ستصبح فيما بعد مكسيكية.

في المكسيك، رأى مجتمع ثقافي إسباني النور، في الفترة المتراوحة بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن الثامن عشر. تكوّن أعضاؤه الأوائل من الجنود والإداريين، ثم انضم إليهم عمال المناجم ومربو الماشية، والعاملون في التجارة، وبعض المصنِّعين. قليلون كان عدد المنحدرين من أصل إسباني من الذين قدموا للإقامة في المكسيك إقامة دائمة، وكان عدد النساء دون عدد الرجال. ونتج عن ذلك

خليط عرقي، واحتفظ المستيزو ببعض أوجه ثقافة موطنهم الأم. انتقل بعض الهنود الذين تشرّبوا الدم. الإسبان أيضاً إلى القطاع الغربي، وقدّموا مساهمتهم الخاصة بهم. وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت هذه الثقافة الإسبانية التي انتمى إليها معظم الأشخاص المولودين في إسبانيا الجديدة قد أصبحت هي الثقافة الجديدة (اللادينو).

في تلك الفترة، ظهر شكلان متباينان للشبكة الثقافية، أحدهما لادينو ناطق بالإسبانية لكنه اقتبس مزايا عديدة من الهنود. من جهة أخرى، وجدت مجموعة من المشائج المختلفة التي كانت لا تزال التقاليد الهندية تسيطر عليها. عشية الغزو الثاني، لم يكن أيٌّ من الأنماط الثقافية تتغير بالسرعة التي اتسم بها التغير خلال القرن الأول، عقب وصول الإسبان. وبدا الأمر كأن الهنود اقترضوا ما أرادوا اقتراضه، وحذا الأوروبيون حذوهم. لكنّ الغزو الثاني الذي جرى في القرن التاسع عشر، أدخل تغييرات على كل هذا الوضع.

لقاء المايا الأول مع الإسبان :

قبل كلٌ من المايا والياكي التحدي الإسباني في قرونه الأولى بأساليب مختلفة كلياً عن تجربة معظم المجتمعات الأخرى التي تشكل اليوم جمهورية المكسيك. بالنسبة للمايا، ظهر التحدي الأوروبي في حقبة زمنية خاصة من تاريخهم الخاص. عندما وصل الإسبان، كانت سيطرة الأزتيك في وسط المكسيك وإمبراطورية الإنكا في الأنديز قد أوشكت على الوصول إلى ذروتها في تلك المناطق. ومن جهة أخرى، أوشك المايا أن يسقطوا، في منتصف القرن السادس عشر، إلى أدنى الحضيض فيما يخص إنجازاتهم السياسية والمادية والفنية والفكرية.

في كل الأحوال، لم يتخذ شعب المايا يوماً ضمن إمبراطورية واحدة. فقط سكنوا ولا يزالوا يسكنون ثلاث مناطق مختلفة لكل منها تاريخ إقليمي مختلف. توجد منطقتان من الثلاث في شبه جزيرة يوكاتان المعروفة شعبياً بأنها الأراضي المنخفضة

الشمالية والجنوبية. الأراضي المنخفضة الشمالية عبارة عن سهل منبسط كلسي يصل معدل سقوط الأمطار فيه إلى أدنى مستوى في الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة، وتشكل فيه النباتات الطبيعية غابة منخفضة. ويرتفع معدل سقوط الأمطار كلما توغلنا عميقاً نحو الجنوب والشرق، بحيث ننتقل إلى غابة الأمطار التي تسيطر على الأراضي المنخفضة الجنوبية المقسومة حالياً سياسياً إلى بيليز Belize، وولاية خياباس المكسيكية، وغواتيمالا المنخفضة الشمالية. أما منطقة المايا الأخيرة فهي عبارة عن هضاب ترتفع مطلةً على ساحل المكسيك على المحيط الهادئ وتمتد نحو الشرق والشمال عبر تلال وجبال وغواتيمالا وصولاً إلى داخل الهندوراس.

بزغ الفجر الكلاسيكي لحضارة المايا في المنخفضات الجنوبية، وشكل حدثاً غير اعتيادي إذ إنّ معظم المجتمعات الحضرية المبكرة الأولى نمت في مواقع بعيدة عن الغابات الإستوائية الكثيفة، بل غالباً ما تركزت في أودية الأنهار من قبيل وادي النيل أو الهندوي. ظهرت العناصر التي كوّنت هذا المجتمع الحضرية المتحضرة روعةً في الأميركتين. ظهرت العناصر التي كوّنت هذا المجتمع المعقد قُرابة بداية التاريخ الميلادي، فأدت إلى الفترة الكلاسيكية لبناء الأهرامات حوالي ٣٠٠ إلى ٨٠٠ للميلاد؛ في حين أن الظهور التقليدي المتأخر جرى في المنخفضات الجنوبية خلال القرون الأخيرة التي سبقت، في حين أن الظهور التقليدي المتأخر جرى في المنخفضات الجنوبية خلال القرون الأخيرة التي سبقت ٨٠٠، فأبرزت بالتالي أوج إنجازات المايا في العديد من المجالات.

وشهد مجتمع المايا في المنخفضات الجنوبية، بين ٧٥٠ و٨٥٠ م، أزمةً ربما تأتّت من أصل مادي وبيئي محتمل. توقف بناء الأنصاب في معظم مدن المنطقة، وانخفض عدد السكان انخفاضاً شديدا إلى أن ثبت عند مستوى جديد أدنى، ما كان عليه في السابق. وتعزز السجل الهندسي الوفير لفترة من الزمن في المنخفضات الجنوبية حيث ازدهرت مدن مثل شيشيت إيتزا حتى حوالي ١٠٠٠م.

ولكنّ حضارة المايا كانت قد تخطت أوج إنجازاتها بخمسة قرون. وعقب الانهيار ما بعد الكلاسيكي، تمكن المايا من الحفاظ على بعض المؤسسات الاجتماعية التي مهدت الطريق أمام إنجازاتهم الأولى، ومن بينها تلاحم المجتمعات الزراعية وبنية طبقية حادة التدرج وافق بموجبها الشعب بأسره على قيادةٍ من النخبة واعترف بها.

ظهر الإسبان للمرة الأولى على ساحل يوكاتان سنة ١٥١٧، ولكنهم سرعان ماتجاوزوه بغية تركيز جهودهم في مدينة المكسيك، على الرغم من أن المايا عانوا الأمرَّين من الأمراض المستوردة بدءاً بوباء الجدري سنة ١٥١٩. بدأ الجهد الإسباني لغزو يوكاتان في سنة ١٥٢٧، وانتهت المرحلة الأولى في سنة ١٥٤٧ عند إخماد «ثورة» المايا. حتى بعد ذلك، ظل الحكم الإسباني جزئياً؛ لأنهم أُرغموا على الحكم من خلال وسطاء من المايا، وظلت بعض أقاليم المايا المهمة خارج دائرة نفوذ الإسبان حتى التسعينيات من القرن السابع عشر.

وفي فترة لاحقة، افتقر الإسبان (والمكسيكيون بعد الاستقلال) لسيطرة إدارية محكمة على كافة الأراضي المايا إلى العقود الأولى من القرن العشرين.

كانت البنى الكهنوتية المتطورّة والحكومية التابعة للحقبة التقليدية قد فقُدت جزئياً قبل وصول الإسبان. واستطاع المايا التكيف مع السيطرة التي فرضها الإسبان دون إدخال أي تعديل على ثقافتهم. وكان بوسع المجتمعات المحلية تطعيم جذور ديانتهم الخاصة بالمسيحية دون أي تغيير أساسي في معتقداتهم السابقة. وقدِم بعض الرهبان والإداريون الإسبان للعيش بينهم، بالإضافة إلى ممثلين ناطقين باللغة الإسبانية من إسبانيا الجديدة (اللادينو). ولكنّ ثقافة اللادينو انحصرت في المدن، وشكَّل ممثلوها أقليلةً صغيرةَ العدد.

مواجهة الياكي Yagni الأول مع الإسبان:

خلال القرون الأولى من الوجه الإسباني، مرّ شمال المكسيك بتجربة مختلفة تمام الاختلاف عنها في وسط المكسيك، وعنها خلال القرن ونصف القرن من الاتصال

بالأوروبيين في يوكاتان. بحلول القرن الثامن عشر، بدأ وسط المكسيك، وما فيه من السكان، ينتعش بعد معاناة من الأمراض التي أصابته في القرون الأولى. بدت ثقافة لادينو مهيمنةً على المدن، وبعض المزارع الإسبانية، وأماكن تربية الماشية، ومناطق المناجم، التي كانت متناثرةً بين سكان آخرين لا يزالون يحتفظون بثقافتهم الهندية. كان السكان في مناطق اللادينو يدينون المسيحية بشكل رئيس، وإن كانت بعض معتقداتهم سابقةً للمسيحية. وكانوا يتكلمون الإسبانية، مع أنهم يتقنون إلى جانب الإسبانية لغةً واحدةً على الأقلّ من اللغات الهندية. أما المناطق الجنوبية القاصية المكتظة بالسكان والواقعة في الجنوب، من قبيل الايستمون Isthmus في تيهوانتيبيك وساحل الباسيفيك، فقد كانت شبيهةً بيوكاتان إلى حد كبير. معظم السكان كانوا على الأقل من المسيحيين بالاسم فقط، ولكن أكثر من النصف كانوا ينطقون باللغات الهندية وحسب، بالمقارنة مع ٢٠ بالمئة من سكان وسط المكسيك الناطقين بلغة هندية واحدة.

ومن جديد، كان الوضع في الشمال مختلفاً. إذ كانت منطقةً قاحلةً أو شبه قاحلة ويفصلها عن وسط المكسيك خط معترّج يطلق عليه في بعض الأحيان تسمية حدود شيشيميك chichimec. يعود أصل كلمة شيشيميك إلى الأزتيك الذين استخدموه للإشارة إلى الشعوب التي كانوا يعتبرونها برابرة الشمال المتوحشين. يمثل هذا الخط الحدودي إلى حدٍ ما الفاصل بين المزارعين المستقرين والحضريين في الجنوب وبين الشعوب البدوية في الشمال، ويمكن تحديد مساره من الشرق إلى الغرب على مسافة ١٥٠ ميلاً شمال مدينة المكسيك.

وكان من الممكن التمييز بين مختلف الثقافات الشمالية وفقاً للبيئة الأساسية وحجم المجتمع. بعضهم كان يمارس الصيد والجمع، ولكن عددهم كان ضئيلاً وعاشوا بشكل رئيس في الشمال الغربي القاصي من كاليفورنيا. وبعضهم الآخر كان شبه بدوي يمارس بعض أنواع الزراعة، على غرار النافاهو والأباتشي. أما غيرهم فقد كانوا مزارعين مستقرين في قراهم. ومن بين هذه المستقرات، يمكن

اعتبار القرية pueblo، في المكسيك الجديدة الحالية، حضرية. وكانت هناك بعض الإثنيات الأخرى التي تعيش في قرى دائمة ولكن أصغر مساحة، تشمل البيما والتارهومارا في جبال الشهواوا وجماعات الأودية الساحلية في سونورا بما فيها الياكي والمايو.

انحصر الغزو الإسباني الأول للمكسيك في جنوب حدود شيشيميك، واقتصر عليها. في شمال الحدود، زحفت حملات استكشافية إسبانية عَرَضية عبر البلاد، واستخدمت إسبانيا هذه التدخلات العرضية للمطالبة بالأراضي بذريعة مواجهة الأوروبيين، إلا أن الإسبان لم يقيموا أي إدارة غير مباشرة كما فعلوا في يوكاتان، بل أسسوا سلسلةً من المقاطعات المغلقة للنفوذ الإسباني ونشاطاته، والتي عملت كمراكز هدفها نشر الثقافة اللادينو انطلاقاً من مدن وسط المكسيك.

تركزت القيمة الرئيسة لشمال المكسيك في ثروته المعدنية، علماً بأنّ الهنود المحليين لم يستغلوا، إلاّ نادراً، ما تحويه هذه المنطقة من ذهب وفضة ونحاس، على غرار ما فعلوه في وسط المكسيك. أدخل الإسبان أعمال المناجم بإدارة اللادينو الذين كانوا يوظفون عمالاً محليين عند الاستطاعة أو يستوردون اليد العاملة من وسط المكسيك المكتظة بالسكان عند الضرورة. ولم تكن مراكز المناجم مكتفيةً ذاتياً بالموادّ الغذائية؛ ولذلك سرعان ما جذبت إليها مراكز ثانوية للنشاط الإسباني الزراعي على شكل مزارع لتربية الماشية والمزارع العاملة على المحاصيل والخراف والماشية المصدَّرة من أوروبا.

وحتى أواخر القرن الثامن عشر، لم تكن المناجم ولا المزارع مراكز للحكم الإسباني. فقد ظلت مناطق مغلقة إسبانية في أراضٍ هندية، سواء على الصعيد السياسي أو الثقافي، تعيد نسخ نمط امبراطوريات المحطات التجارية التي نشرها الأوروبيون على طول سواحل الأراضي الواسعة الإفريقية- الأوروبية- الآسيوية أو براً عبر سيبريا أو الغابات الأمريكية الشمالية بحثاً عن الفِراء.

حصلت المواجهة الأولى بين الياكي والإسبان من خلال النشاط التبشيري. فقد كانت الإرساليات التبشيرية تمثل شكلاً ثالثاً من أشكال الأراضي الإسبانية المغلقة في الشمال الهندي. في سونورا والشمال الغربي، خُصِّصت الإرساليات للبرهنة اليسوعية. وقبل سنة ١٦١٧، عند وصول الدفعة الأولى من اليسوعيين، بلغ عدد شعب الياكي قُرابة الـ ٣٠ ألف نسمة مستقرة في قعر الوادي في منطقة يبلغ طولها ٦٠ ميلاً وعرضها ١٥ ميلاً. وبوجود ٣٠ ألف نسمة في الميل المربع، باتت في المنطقة الأكثر ازدحاماً في الأقاليم التي صارت شمال غرب المكسيك.

إنّ ظروف سونورا الساحلية الشديدة الجفاف لم تؤهلها للزراعة المعتمدة على هطول الأمطار، إلا أن المعدل المرتفع لسقوط الأمطار في المرتفعات الداخلية غذَّت الأنهار، من قبيل نهري ياكي ومايو اللذين كانا يرويان الأدوية الساحلية. وفّر الاستيطان الطويل والكثيف في هذه الأودية للسكان الناطقين بلغة الكاهيتا شعوراً بالانتماء لهويةٍ ما. وعلى الرغم من عددهم الضئيل، فقد شكل الياكي ربع سكان هذه المنطقة التي ستصبح ولاية سونورا. عاش بعض الياكي على صيد السمك على طول ساحل الصحراء أو على الصيد والجمع في الجبال، لكن القسم الرئيس من سكان الوادي كانوا مستوطنين في قرى صغيرة لا يزيد حجمها الوسطي عن ٤٠٠ نسمة. كل قرية من هذه القرى كانت تتمتع باستقلالها السياسي لمعظم الأغراض، ولكن سكان الوادي كانوا يشعرون بانتمائهم لهوية الياكي وباختلافهم عن جيرانهم مثل المايا القاطنين في الوادي المجاور، مع أن لغتهما وثقافتهما كانتا متشابهتين. اتّحد شعب الياكي، بين الحين والآخر، على شكل تحالفات غير دائمة للقيام بأعمال مشتركة، مثل الحروب.

عبرت الحملات الإسبانية الشمال متخطيةً سونورا قبل سنة ١٦١٧ ودون أن يتأتى عن ذلك أيُّ نتيجة دائمة، ولكن الحال كان مغايراً مع اليسوعيين. فقد أقام هؤلاء مستوطنات ما وراء الحدود الإسبانية من أجل تغيير ديانة الهنود الذين كانوا، في غالبيتهم من البدو الرحل، ومن أجل تشجييع معتنقي المسيحية الجدد للإقامة

حول الإرساليات بحيث يشكلون سلسلةً من القُرى أو البلدات تخضع لسيطرة الإرساليات، كما فعلوا تماماً في البرازيل والباراغواي.

أمّا في الشمال الغربي من المكسيك، فقد تخطوا إطار حدود السلطة الإسبانية غير الدينية ودون أي دعم عسكري. وفي الواقع، كانوا يمثلون حكومة إسبانيا الجديدة داخل مستوطناتها. أما مقاصدهم المعلنة الطويلة الأمد فقد كانت تقوم على تسليم مسؤولياتهم السياسية إلى الحكومة الإسبانية العادية، وتسليم ما يقدمونه من رعاية روحية إلى رجال الدين الرسميين. وفي الواقع، لم تصل مقاصدهم هذه إلى مرحلة التنفيذ إلاّ في حالات نادرة، ولذلك أصبحت الإرساليات مقاطعة مغلقة سياسية وثقافية جديدة ومختلفة في الشمال. توصلنا إلى هذه المعلومات عن الإرساليات اليسوعية من سجلات اليسوعيين. ومن المحتمل أن يكون إدراك الياكي لهذه الأحداث مختلفاً. واستناداً إلى كلام اليسوعيين أنفسهم، واتفاق ذاكرة الياكي اللاحقين، دخل بعض الرهبان اليسوعيين إلى وادي الياكي وأعادوا تنظيم مجتمع الياكي في فترة زمنية. لم تتجاوز العقد. لقد حولوا قراهم الصغيرة إلى ثماني بلدات إسبانية الطراز متمركزة حول ثماني كنائس. عيّن الرهبان اليسوعيون مسنين وحكاماً تابعين آخرين وحمّلوهم مسؤولية حكم هذه البلدات في ظل سلطة الرهبان. وبهذه الطريقة تألفت الحكومة الموحدة الأولى في تاريخ شعب الياكي.

أدخل اليسوعيون أيضاً وسائل زراعيةً جديدةً، وماشيةً، ومحاريثَ، ومحاصيلَ جديدةً، ونظاماً جديداً لاستملاك الأراضي، بحيث قسّموا الأراضي إلى قطع يستطيع أعضاء العائلة أن يعملوا فيها لثلاثة أيام في الأسبوع. بالإضافة إلى الحقول المشاع التي أُجبر كلُّ الرجال الأصحّاء على العمل فيها في الأيام الثلاثة الباقية في الأسبوع. واحتفظ اليسوعيون بنتاج الحقول المشاع على شكل احتياطي، تحسباً للأيام السوداء من جهة، ولمساعدة الرهبنة اليسوعية، من جهة أخرى، في توسيع نشاطاتها أكثر نحو الشمال الغربي، وصولاً في نهاية المطاف إلى كاليفورنيا.

وفي ظل هذا النظام، شهد الياكي أزمةً ديموغرافيةً ناتجةً عن تعرضهم لأمراض العالم القديم. ولم تتسم فترة حكم اليسوعيين بالازدهار على الدوام، فبحلول أواخر القرن الثامن عشر، تذكر الياكي أساليب قديمة كانت عبارةً عن مزيج جمع بين ثقافة المسيحيين والأهالي الأصليين التي نمت في ظل حكم اليسوعيين وسعوا لحفظها. كما أعاد الياكي المتأخرون هويتهم إلى الفترة التشكيلية للحكم اليسوعي وبلدات الإرساليات الأصلية الثماني.

شاملة امتدت شمالاً إلى أن بلغت ما سوف يصبح ولاية اريزوناز. لكنّ حتى في تلك الفترة، طالب الثوار بإصلاح الحكومة اليسوعية وليس بإلغائها. وأُخمدت الثورة، إلاّ أن الإصلاحات التي تبعتها أعطت الياكي فرصةً أكبر للتعبير عن رأيهم فيما يتعلق بشؤونهم الخاصة. ولكن بحلول الستينيات من القرن الثامن عشر، اصطدمت الرهبنة اليسوعية ككل من سلامة البوربون في كل أرجاء الإمبراطورية الإسبانية. وعندما طُردت الرهبنة من أمريكا الإسبانية في سنة ١٧٦٧، استمرت البنية السياسية للبلدات الثمانية ولكنها صارت تخضع لحكم الياكي.

تمسك الياكي بأراضيهم، ونجحوا في تفادي دفع الجزية المعتادة. وتعزّز مركزهم المساوم لأنهم أصبحوا، بفضل إمدادهم المناجم في الشمال الغربي باليد العاملة، ضروريين لاستمرار تقدم عجلة الاقتصاد المكسيكي. وبما أنهم كانوا مسيحيين بالاسم فقط، فقد قويت جهودهم الآيلة للتصدي للضغوطات المسلطة على المعايير الثقافية التي وضعوها لأنفسهم خلال القرن المنصرم. حظي المجتمع الهندي بسلام نسبي من خلال فرض نفسه عنصراً ضرورياً للشخصيات البارزة في الحكومة، وساعدت تسويةٌ ضمنيةٌ مماثلةٌ في الحفاظ على وحدة ثقافة المايا طوال الجزء الأكبر من القرن الثامن عشر، ولكن في ظل أشكال سياسية مختلفة تمام الاختلاف. في يوكاتان، اقتنع الإسبان بالحكم من خلال طبقة المايا العليا التي ظلت تسيطر على الأراضي ومعظم شؤون المجتمع. أما في وادي الياكي، فقد أنشأ اليسوعيون مجتمعاً تنعدم فيه الطبقات الاجتماعية تقريباً استلموا زمام أموره في بادئ الأمر.

وبعد مغادرتهم، اعتمدت الديموقراطية في اختيار قيادة الياكي فكانت هنديةً لا إسبانية. إلا أنه، حتى عشية الغزو الثاني، تميّز النظام السياسي والثقافي الذي أقامه كل من اليسوعيون والياكي سوياً باستقرار بارز، وإمكانية مواجهة الضغوطات الجديدة التي مارسها عالم اللادينو.

غزو المكسيك الثاني:

ابتدأ الغزو الثاني قبل حروب الاستقلال في العقد الأول من القرن التاسع عشر، واستمر في خلفية اجتياحات أمريكا الشمالية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، والتدخل الفرنسي في الستينيات من القرن التاسع عشر، وحركة الإصلاح بقيادة بينيتو خواريز، وديكتاتورية بورفيويو دياز ابتداءً من أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٠. شملت بعض أشكال هذا الغزو الثاني للمكسيك كلَّ أنحاء المكسيك، فيما كان غيرها مقتصراً على منطقة واحدة أو إقليم واحد. وفي أغلب الأحيان، ارتبطت الأبعاد العسكرية، على وجه الخصوص، بشعوب خاصة، من قبيل الياكي أو المايا،، أو حتى شرائح أصغر من المجتمعات الثقافية، ولاسيما من المايا، أي مجموعة كبيرة تعيش متناثرة في عدة مقاطعات. وحتى ضمنت شريحة المايا التي آلت إلى المكسيك، انفجرت ثوراتٌ منفصلةٌ، تُسمَّى حروب الطبقات، في مناطق المايا المتشرذمة في يوكاتان وخسياباس.

لم تؤثر العديد من الأحداث السياسية والعسكرية المركزية في تاريخ المكسيك، خلال القرن التاسع عشر، تأثيراً مباشراً على الهنود. فقد تركزت على السياسات الوطنية التي وضعتها الجمهورية المكسيكية المنبثقة، وانتهت بسلسلةٍ متلوِّنة من التصريحات التي نادراً ما كانت تعني ما تقوله. كما أنها كانت تُعلن عن خِطَط نادراً ما تُتَرجَمُ على أرض الواقع. إلاّ أنّ التصريحات والخطط كانت تمثل صراعاً بين ثلاث كُتَلٍ من المصالح السياسية داخل المكسيك اللادينو. إحدى هذه الكتل كانت محافظةً على نطاقٍ واسع، تؤلفُها الطبقةُ العليا من رجال الدين، والطبقات المالكة للأراضي، والثرية بشكل عام، بالإضافة إلى كل المناصرين الذين تمكنوا من جذبهم

من الطبقات الأخرى. أما الكتلة الثانية فقد كانت ليبيرالية إلى حدٍ كبيرٍ، بالمعنى الليبرالي الشائع في القرن التاسع عشر، تشتمل على الإيمان بالمؤسسات الخاصة، تصحَبُهُ شكوكٌ قويةٌ بأن مصالح الشركات الموروثة من حِقَب الاستعمار غير مؤاتية للهدف الذي وضعته المكسيك نصب أعينها، ألا وهو اللحاق بأوروبا وشمال أمريكا الصناعيتين. وقد يكون المجموعُ الواسعُ من المجتمعات الهندية غير المدمجة التي شكلت على الأرجح ثلث الشعب المكسيكي ابتداءً من حوالي ١٨٥٠، ظهر باعتباره كتلةً ثالثةً. ولكنها تفرقت واستغلتها الكتلتان الليبرالية والمحافظة باعتبارهما طعام المدافع وفرائستها.

على مستوى المكسيك بأسره، صدر الضرر الأكثر خطورة والمسدّد للمجتمعات الهندية من التفاعل الغريب بين الليبراليين والمحافظين بين الخمسينيات من القرن التاسع عشر وسنة ١٩١٠. في سنة ١٨٥٤، وعقب أربعة عقود من الصراع بين القادة العسكريين المتنافسين والحرب التي انتهت بالهزيمة ضد الولايات المتحدة، تمكنت القوات الليبرالية بقيادة بينيتو خواريز من خلع الديكتاتور العسكري وبدأت تعمل بغية نظام دستوري جديد ينقل البرنامج الليبرالي إلى أرض الواقع. أطلق على هذه الحركة تسمية الإصلاح، وقد اتصف برنامجها بالديموقراطية وبالتحديث عامةً. بمعنى أنه كان يسعى لتحويل المكسيك على شاكلة مجتمعات العالم الغربي التي كان الإصلاحيون معجبين بها. لقد كانوا يؤيدون حصول الطبقة الوسطى المتطبعة بالطابع الإسباني على فرصة التعليم، وحرية الاعتقاد الديني، وحرية المؤسسات الخاصة، والحرية السياسية.

اعتبرت الكتلة الليبرالية أن برنامجها يواجه إعاقةً على جبهتين إحدى هاتين الجبهتين كانت عبارةً عن امتيازات اتحادية خاصة لا تزال تتمسك بها الكنيسة والجيش. ومن شأن هذه الامتيازات أن تمنحها نفوذاً جامحاً ضمن الدولة المكسيكية. أما الجبهة الثانية فتمثلت في جهل الهنود وميلهم للمحافظة. اعتبر بعض الليبراليين بأنّ الهنود ينتمون، من الناحية العرقية، لطبقة أدنى وتكلموا عن

الرغبة في تشجيع الهجرة من أوروبا، ولكن لم يكن ذلك سوى توتر ثانوي. فبينيتو شخصياً إلى العرق الهندي.

لكنه كان محامياً نموذجياً من الطبقة الوسطى وله أفكار ليبرالية، ولم يكن يوماً من الأيام فرداً من أفراد مجتمع هندي. لم يظهر البرنامج الليبرالي، في خطوطه العريضة، مناهضاً للهنود، بل اقتصرت معارضته على الثقافات الهندية الموروثة. كان يطالب بالتعليم الرسمي مع أنه لم ينجز الكثير في هذا المجال، كما كان يسعى لفخ تعاضديات المجتمعات الهندية. وصف الليبراليون الأراضي المشاعية باعتبارها عائقاً رئيساً للتحسينات الزراعية. وكانوا يعتقدون بأنّ ملكية الأراضي الفردية قد تحوّل الهنود إلى فلاحين يعولون على أنفسهم ويمكنهم المنافسة في الأسواق.

وما حصل البرنامج الليبرالي على فرصة. فمن ١٨٥٧ إلى ١٨٦٠، فاز خواريز في حرب دامت ثلاث سنوات ضد المعارضة المحافظة، ومن ثم أمضى ثلاث سنوات أخرى، من ١٨٦٢ إلى ١٨٦٥، يحارب التدخل الفرنسي لصالح الامبراطور- الدمية ماكسيميليانو النمساوي الأصل. وخُلع ماكسميليانو واستتبَّ السلام عام وفاة خواريز سنة ١٨٧٢، وحل محل الليبراليين مجدداً ديكتاتور عسكري يحمل اسم بورفيويو دياز الذي حكم من عام ١٨٧٦ حتى عام ١٩١٠.

كان دياز ليبرالياً وقد تابع نظامه جزءاً، على الأقل، من البرنامج الليبرالي بما أنه كان يهدف إلى إلغاء ملكية الأراضي المشاع الهندية. فابتداءً من ١٨١٠، امتلكت حوالي ٥٠٠٠ قرية هندية أراضي مشاعاً، وقعت معظمها في وسط المكسيك، في مناطق خصبة، وكانت تشكل حوالي ٦ بالمئة من مساحات الجمهورية الإجمالية. وبحلول سنة ١٩١٠، عندما أنهى دياز إعادة تنظيم الأراضي، انخفضت الملكيات المشاع الهندية بنسبة ٦٠ بالمئة، وخسر الهنود القسم الأكبر من أفضل أراضيهم التي كانت تنحصر تقريباً في المنطقة الوسطى من وسط المكسيك. كان البرنامج الليبرالي الذي ينوي تحويل الهنود إلى فلاحين مزارعين، إلا أن معظم الأراضي التي خسروها كانت قد صارت مزارع ضخمة.

تحول مالكو الأراضي المشاع السابقون إلى عمال دون أراضٍ، وأصبح معظمهم يعملون بالسخرة أو الأجرة عوضاً عن أن يكونوا عمَّالاً أحراراً، وهكذا دخلوا في مجال أعمالٍ شاقّةٍ أشبه بالعبودية. وبما أنّ هذا الحدث شكل قوةً تدعم التغير الثقافي، فقد يرعى دون شك عملية نشر الطابع الإسباني التي كانت قد بدأت واقتلعت العديد من الهنود من مجتمعاتهم السابقة وزجَّتهم في الطبقات الدنيا من المجتمع المكسيكي اللادينو، علماً بأنه لم يكن أسلوب التحديث الذي كان يسعى خواريز وتابعوه للحصول عليه.

الغزو الثاني للمايا:

بالنسبة للمايا، بدأت بعض أوجه الغزو الثاني منذ السبعينيات من القرن الثامن عشر، عندما وصل الإصلاح المالي للإمبراطورية الإسبانية إلى اليوكاتان. تُركت المجتمعات الهندية في هذه المنطقة دون أي تدخلات تحكمها طبقتها الارستقراطية وتتحلى بمقدار من الاستقلالية المالية. ولكنها باتت تواجه اعتداءات. فقد نقلت أموالهم السائلة إلى خزينة الدولة الاستعمارية حيث توضع، على الأرجح، تحت مراقبة أفضل. وفي كل الأحوال، وضع هذا الحدث حداً للفساد المفترض انتشاره داخل المجتمع، ولكنه فتح الباب أمام إمكانية نقل أموال خزائن الجماعات إلى الحكومة المركزية. واعتماداً على الأسلوب ذاته تقريباً، بدأت الكنيسة تسيطر على الأموال المحفوظة لدى الأخويات المدنية في مجتمع المايا من أجل طقوس القديسين. وبدأت السلطات الدينية باستخدام الأموال لأغراض دينية أكثر شمولية محمّلة بمصالح الادينو. وبحلول التسعينيات من القرن الثامن عشر، كبت الإصلاحات الإدارية، إلى حد كبير، الحرية التي كانت تنعم بها طبقة المايا الارستقراطية في إدارة شؤونها الخاصة في ظل التحكم الاسباني.

بحلول السبعينيات من القرن الثامن عشر، بدأ اللادينو يستلمون زمام الأمور في البلاد ويتحكمون بالإنتاج الزراعي. ولم تكن كثافة السكان مرتفعةً في يوكاتان، وقد

اقتصرت المؤسسات الزراعية الإسبانية المبكرة إلى حد كبير على مزارع تربية الماشية الانتشارية. وعلى الرغم من أن عدد شعب المايا كان يتزايد من جديد في تلك الفترة عقب أزمة الأمراض التي شهدتها القرون الأولى، بدأت مجتمعات المايا تفقد أراضيها بسبب عمليات مختلفة من مصادرة الملكيات، وتوسع نطاق قطاع المزارع اللادينو بسرعةٍ كبيرة. وبحلول التسعينيات من القرن الثامن عشر، بدأ مالكو الأراضي اللادينو بالتجوّل من الذرة والأبقار الى القطن والسكر والصبار المكسيكي بهدف تصديرها بالدرجة الأولى. وبحلول زمن الاستقلال، أصبحت المزارع تشكّل أهم قطاعات اقتصاد يوكاتان، كما صارت بالفعل الأهم بالنسبة لعلاقات يوكاتان مع العالم الخارجي.

في تلك الحقبة، بلغ عدد كل من الأشخاص المنتمين إلى ثقافة اللادينو حوالي ربع سكان يوكاتان – وتشير تقديرات غير دقيقة أنّ عدد السكان وصل إلى حوالي ٣٠٠ ألف نسمة عند حصول الاتصال الأول مع الإسبان، ثم انخفض إلى ١٥٠ ألفاً على الأرجح عند مطلع القرن الثامن عشر، وارتفع مجدداً إلى حوالي ٣٦٠ ألفاً عند مطلع القرن التاسع عشر، وإلى ٥٨٠ ألفاً حوالي ١٨٤٥، واتسع إطار التطبّع بالطابع اللادينو تدريجياً بعد الاستقلال. ونتج جزءٌ من التوجه نحو التطبع بالطابع الإسباني عن حركة الهجرة من وسط المكسيك. ولكنّ الجزءَ الأكبرَ منه تأتى من جذور محلية. في تلك الفترة، تم الحفاظ على الانضباط الاجتماعي من خلال الهيبة والسلطة المستمرين اللتين كانت تمارسهما طبقة النبلاء المسيطرة على الأراضي، والوظائف الشعائرية المهمة التي حافظت على المعنى الأصلي لديانة المايا، على الرغم من تطعيمها بالمسيحية.

عندما خسرت مجتمعات المايا أراضيها، أجبر الأفراد على البحث عن العمل في المزارع الخاضعة لسيطرة الإسبان، وسرعان ما وجد معظمهم أنفسهم خاضعين لنظام السخرة التأجيرية الشديدة الشبه بالعبودية؛ لأن الديون كانت إرثاً يتنقل إلى الأولاد عند موت الوالد. واستبدلت بالهوية المشتركة لمجتمع المايا بمجتمعات مزارع

قصب السكر والصبار بالإضافة إلى واجب مشترك لخدمة رب العمل. وبالنسبة لمعظم المايا العاملين في هذه المزارع، كان هذا التحوّل بمثابة بداية فقدان هوية المايا. فقد ابتدأ ذلك بإخضاع نخبة المايا، وإلغاء طقوس المجتمع الدينية، واستبدال لغة المايا بالإسبانية، والتسلل التدريجي اقتصاد السوق. كل هذه الأمور لم تحدث مباشرةً في الجيل الأول. ولكن على مرّ العقود، انتقل الاجتماعي من المايا إلى العالم اللادينو بشكل تصاعدي. وعندما نشبت حروب الطبقات في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر، ولم يحرّك هنود المجموعات المتناثرة، ساكناً للدفاع عن مجتمعات المايا الأخرى أو ثقافة المايا.

تركزت يوكاتان اللادينو النامية حصراً في المدن، لاسيما في ميريدا في الشمال الغربي التي كانت تحصل على إمداداتها عبر مرفأ سيسال التابع لها. وتضمنت فئة ثانية من البلدات مرفأ كامبيشي المحصّن في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة وفالادوليد، وهي المركز الرئيس الحدودي لتوسع اللادينو نحو الشرق والجنوب الشرقي. ونذكر أخيراً بلده باكالار التي كانت تحتل مستوى أدنى من حيث عدد السكان والأهمية، وهي عبارة عن مرفأ يؤمن الاتصال بالكاريبي شمال الهوندوراس البريطانية. لقد كانت السلطات المكسيكية تدير معظم منطقة الغابات الشرقية والجنوبية. وحتى مطلع القرن التاسع عشر، كان ليوكاتان خط حدودي غير محدّد يفصل العالم اللادينو الجاري حكمه انطلاقاً من المدن عن مناطق لا إدارة فيها أو ربما ذات إدارة خفيفة ولا يزال يطغى عليها طابع المايا بشكل عميق.

حرب الطبقات وشان سانتا كروز:

تمثل الحدث السياسي والعسكري الأبرز في مقاومة المايا في حركة المقاومة الهندية المعروفة باسم حرب الطبقات التي أصبحت بالفعل الأهم في سلسلة من حروب الطبقات.

اقتبس الاسم من مصطلح CASTAS الإسباني الذي يشير إلى الأشخاص الذين لم يُعترف باعتبارهم فعليين مثل الميستيزوس، والخلاسيين، والأفارقة، والهنود، والمولودين من تزاوج هذه الأجناس.

نشبت حرب طبقات المايا الكبرى سنة ١٨٤٧ على أنها ناتج ثانوي لصراع كان آخذاً في التطور بين فئات اللادينو إثر اجتياح أمريكا الشمالية في سنة ١٨٤٥. وعند بلوغ الحرب أوجها، في منتصف ١٨٤٨، كان الهنود قد استولوا تقريباً نحو الداخل إنطلاقاً من الساحل الكاريبيز، تمركزت الدولة الشرقية على بُعْد خمسة وعشرين ميلاً تقريباً نحو الداخل انطلاقاً من الساحل الكاريبي. تمركزت الدولة الجديدة في مغارة مقدسة وحوض يقع عند أسفل هوّة سحيقة عامودية يشيع وجودها بين صخور يوكاتان الكلسية. شرعت القيادة السياسية الجديدة باستخدام الرمز الشعائري لصليب ناطق كان يصدر التعليمات بمعونة مترجم. ومع الوقت، طوّرت الدولة الجديدة بنيةً سياسيةً تتمحور حول الصليب. اضطلع القائد الرئيس بدور «راعي الصليب»، وكان يجمع بين سلطة الكاهن الكاثوليكي وناسك المايا، تماماً كما كان الصليب يمثل في وقتٍ واحدٍ رمزاً مسيحياً، ورمز مايا يستند إلى إيمان المايا بأهمية الاتجاهات الأساسية الأربعة. تضمن المسؤولون الآخرون مترجم الصليب وأمين سره، ويأتي بعدهما، ولكن بمستوى أقل بكثير، المسؤولون العسكريون الذين تتناسب ألقابهم مع ألقاب الجيش المكسيكي. ومع مرور الوقت، احتل الجيش الموقع الذي كانت تشغله سابقاً قيادة البلدة. وفي الواقع، ظل طابع المايا مسيطراً على الدولة الجديدة، إلا أنها اقتبست من خصومها اللادينو بعض أوجه ديانتهم وأوجُهاً أخرى من تنظيمهم العسكري.

لقد كانت شان سانتا كروز منيعةً حصينةً دون شك. استولى عليها عدة مرات خلال حرب الطبقات، لكن، في معظم الأحيان، كانت الكتيبة المقاتلة تتوغل في الغابة وتختفي بكل بساطة لتعود وتظهر من جديد عند انسحاب الجيش المكسيكي. وعند انتهاء حرب الطبقات في سنة ١٨٥٥، واصلت قوات شان سانتا كروز غزوها

للمناطق الواقعة تحت سيطرة اللادينو، وظلت تأخذ العبيد أسرى لديها على غرار اللادينو الذين كانوا يأسرون العبيد المايا بهدف بيعهم لمزارع السكر الكوبية. دخل الغزاة المكسيكيون أحياناً لأراضي المايا حيث كانوا يتكبدون خسائر فادحة. ولكن في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، بدأ الوضع يستقر. احتفظت شان سانتا كروز بمكانتها كأشد قوة مستقلة للمايا، ولكن دويلتان أو ثلاث دويلات مستقلة أخرى للمايا تمكنت من الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية، وأحياناً على الصراعات العسكرية أيضاً، مع شان سانتا كروز، ومع البريطانيين في بيليز، ومع حكومة يوكاتان. باتت فترات السلام الرسمي والهدنات DE FACTO الواقعية شائعة. لقد كانت المشكلة الأساسية لكل المايا هي أنّ أراضيهم كانت الأفقر في كل أنحاء شبه الجزيرة ولا يمكنها أن تتحملَ نسبةً كبيرةً من السكان الذين لم يزيدوا على ١٠ آلاف بحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر.

قررت الحكومة المكسيكية برئاسة بورفيريو دياز أن تضع حداً لاستقلال المايا بصورة حاسمة، كجزء من سياستها المماثلة التي طبقتها ضد معاقل المقاومة الهندية الموزعة في أرجاء أخرى من الجمهورية.

ففي سنة ١٨٩٩، جهزت جمهورية المكسيك حملةً ضخمةً ضد شأن سانتا كروز تدعمها البنادق والرشاشات، والمدفعية، فيما كانت أعمال شق طريق إلى داخل أراضي المايا من الغرب وبناء سكة حديد فرعية انطلاقاً من الساحل الكاريبي جارية. هذه المرة، لم تكتفِ الحكومة المكسيكية بغزو شان سانتا كروز بل احتلتها، ونظمت المنطقة المحتلة على أنها تسمى كوينتانارو دون اعتبارها دولة مستقلة أو ملحقة بدولة يوكاتان بل أرض غير ذاتية الحكم تخضع للسيطرة الفدرالية. وبحلول سنة ١٩٠٢، اعتبر المكسيكيون أن فتح يوكاتان الثاني قد اكتمل.

بقيت شان سانتا كروز خاضعة لحكم المكسيك حتى ١٩١٢، عندما بلغت أعمال العنف التي اتصفت بها الثورة المكسيكية الكبرى يوكاتان وأجبرت القوات المكسيكية على الانسحاب من جديد. في هذه المرة، لم يعد المايا الموجودون في كوينتانار

للسيطرة على عاصمتهم السابقة بل تابعوا العيش بأسلوبهم الاعتيادي في ظل إدارة مكسيكية ضعيفة للغاية. وقد يكون استقلال المايا السياسي الفعلي في بعض أرجاء هذه المنطقة دام حتى السبعينيات من القرن العشرين، إلا أنّ المايا القاطنين في ياكاتان شهدوا، بشكل عام في القرن العشرين، أنماطاً عالميةً ومكسيكيةً من التبدل الثقافي. ولا تزال لغة المايا متداولةً على نطاق واسع، كما لا تزال عناصر من ديانة المايا القديمة حيوية في يوكاتان ومنطقة المايا الزراعية الشاسعة. نظَّمت مجموعة أخرى من المايا ثورة علنية ضد الحكومة المكسيكية في فترة غير بعيدة في التسعينيات من القرن العشرين، باتجاه غرب ولاية خسياباس. إلا أنّ تأثير الاجتياح السياسي للأوروبيين وسكان شمال الولايات المتحدة خلال العقود الأخيرة أحدث، بالنسبة لليوكاتان، تغييرات أساسية في حياة المايا أكثر من أي فترة زمنية مماثلة في القرون السابقة.

مقاومة الياكي:

تماثل توقيت تقدم اللادينو ومقاومة الياكي في سونورا مع توقيت صمود المايا في يوكاتان. أحدثت حروب الاستقلال المكسيكي سلسلة من المعارك الإقليمية بين اللادينو والهنود وقوات مختلطة من الفريقين. وانفجرت ثورة ياكي عارمة دامت من ١٨١٦ حتى ١٨٣٣ وشكلت جزءاً من اضطراب عام بقيادة أحد الياكي الذي كان لقبه الحربي بيندرز. كان هدفه المعلن إقامة دولة هندية تمثل الخَلَفَ الشرعي لدولة الإزتيك التي تعود إلى ثلاثمائة سنة خلت، كما أنه جذب إليه دعم المايو وغيرهم من هنود المنطقة.

سحقت الحكومة المكسيكية ذلك التمرد، ولكن الياكي تمكنوا من الظهور مجدداً إلى الواجهة كما أصاب الوهن الدولة المكسيكية، كما حدث إثر الحروب الليبرالية- المحافظة التي نشبت في منتصف القرن. وطوال العقد الذي دام من سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٨٥، نجح قائد ياكي جديد يدعى كاجيم في إنشاء جمهورية مستقلة تقريباً في

وادي الياكي. وعندما ظهر بورفيريو دياز كديكتاتور يطالب بالمركزية، احتلت القوات المكسيكية مجدداً الوادي، واستعادت حقوق الملكية على أراضي الوادي.

تدنت مقاومة الياكي عندئذ إلى مستوى حرب الميليشات المنطلقة من الجبال القريبة، واستمرت المقاومة طوال التسعينيات من القرن التاسع عشر وشملت منطقةً امتدت من الحدود الشمالية للوادي وصولاً إلى حدود أريزونا تقريباً. احتلت حكومة دياز الوادي وباشرت بالقبض على الياكي المشتبه بأنهم يدعمون الميليشيات وترحيلهم إلى الأجزاء القاصية من الجمهورية.

عددٌ كبيرٌ أُرسل بمثابة عبيد للعمل في مزارع القنب في يوكاتان، تماماً كما تم ترحيل العديد من سجناء المايا على شكل عبيد للعمل في مزارع كوبا.

بحلول الحقبة التي شهدت سقوط دياز في سنة ١٩١٠، اتخذت هزيمة الياكي في سونورا على غرار الخسارة التي تكبدها المايا في كوينتانا رو، شكلاً نهائياً. لقد تمكن الفريقان المذكوران من الحفاظ على ثقافتيهما وهويتهما من خلال إدخال تغييرات مع مرور الزمن واقتباس بعض مظاهر أسلوب حياة اللادينو، ولاسيما في مجال التنظيم السياسي، كما حدث في قرى الياكي الثمانية أو شأن سانتا كروز في بوكاتان. لقد استخدم الفريقان أسلحة اللادينو وعرفوا طريقة مقاتلهم. ولكن عقب ١٩١٠، تعلق مصير التراث الهندي في المكسيك بالثورة المكسيكية.

المكسيك الهندية والثورة :

يصعب على المؤرخين أحياناً تحديد زمان اندلاع ثورة سياسية ضخمة أو خمودها. تزامن بدء الثورة المكسيكية عند سقوط دياز سنة ١٩١٠، ولكن عملية إقامة إدارة جديدة للجمهورية اتسمت بالبطء. ولذلك لم تظهر أكثر إنجازاتها ثباتاً إلاّ عند استلام لازاروكارديناس الرئاسة من سنة ١٩٣٤ حتى ١٩٤٠. ففي تلك الفترة، كان الناطقون الرسميون الرئيسون للثورة قد وضعوا التراث الهندي في مركز تبلور القومية المكسيكية. كان التراث الإسباني يحظى بالاحترام أيضاً ولكنّ

كواهتيموك ومزكتيزوما تفوقا على كورتيس بما أنهما يمثلان رمزين، من رموز الكرامة الوطنية يعود ظهور أدب هندي مهم INDIANISTA إلى هذه العقود الثلاثة الأولى من الثورة، حينما كان الآداب والفنون تظهر التقدير والتبجيل للتقاليد الهندية. قدمت حكومة كارديناس تنازلات سياسية بين الحين والآخر، وفي عام ١٩٣٧، منحت الياكي منطقة تتمتع بحكم ذاتي في واديهم، وقد كانت هذه المنطقة تمثل حوالي نصف مساحة الأراضي التي كانوا يدعون بأن ملكيتها تخصهم، وسمحت لهم بإعادة إنشاء بلداتهم الثمانية.

فالاحترام المفروض للماضي الهندي لم يكن يتضمن طبعاً إعادته لهم. وقد طالبت الثورة أيضاً بالتعليم الجماعي بوصفه خطوة أساسية نحو محاولة اللحاق بالدول الأكثر تقدما، بما فيها التعليم الجماعي بالإسبانية. وطوال عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، انخفضت النسبة المئوية لعدد سكان المكسيك الذين يعرفون أيَّ لغة من اللغات الهندية. أما النسبة المئوية لمن يعرفون لغة هندية واحدة فقط، فقد انخفض انخفاضاً أكثر حدة. ومع ذلك، فقد بلغت معرفة اللغة الإسبانية أقل من ٥٠ بالمئة بحلول ١٩٤٠، ولو أننا أسقطنا منحنى التطبع بالطابع الإسباني في أثناء العقد الثوري العام على المستقبل، لما كان كل المكسيكيين تعلموا اللغة الإسبانية إلا بعد سنة ٢٠٠٠.

اضطلع التأثير الجغرافي لتبدل اللغة بدور بارز أيضاً. فمعظم الأحداث كانت تصدر عن المناطق الهامشية حيث بلغت مقاومة الحكم المكسيكية حداً بارزاً خلال القرن التاسع عشر. بلغت نسبة الناطقين باللغة الهندية أدنى مستوياتها في المناطق الساحلية، في الشمال، وفي يوكاتان. ولكنها لم تكن متدنية في المنطقة الوسطية القديمة حيث دامت هيمنة اللادينو أطول فترة. في الواقع أدت زيادة عدد السكان في الثلاثينيات من القرن العشرين إلى الارتفاع الفعلي للعدد المطلق للناطقين باللغات الأربع الخاصة بالمنطقة الوسطية الأكبر مساحة- أي ناهواتي وميكستيك وزابوتيك وأوتومي. أما اللغة الرئيسة الوحيدة التي تدنت نسب استعمالها إلى حدود الانمحاء؛ فهي لغة مايا اليوكاتان.

يشير ما سبق إلى أن الوهن كان يضرب التعددية الثقافية في المكسيك بسبب التصنيع، والتخطيط، والنزوح الداخلي. وإنه لمن العدل أن نقول بأن الثقافتين الهندية والأوروبية في المكسيك تتكاملان حالياً بحيث أصبح ثلاثة أرباع عدد السكان على الأقل لا ينتمون ثقافيا لا للهنود ولا للأوروبيين، بل للمكسيكيين ببساطة. وجهة أخرى بأهداف تأثير التجانس العالمي. ويشتمل ذلك على التأثير الذي يمارسه التلفزيون في العالم أو تدفق السياح نحو السواحل المكسيكية، ولكن ما هو أهم بعد حركة الهجرة الضخمة ذهاباً وإياباً بين المكسيك والولايات المتحدة.

وبالمقارنة مع المجتمعات المتعددة الأجناس في جنوب إفريقية وآسيا الوسطى، يقيَّم العنصر الأوروبي في جُمعية الجينات المكسيكية بحوالي ١٠ إلى ٢٠ بالمئة من المجموع، بما أن الباقي من الهنود وبعضهم من الأفارقة. ويشير ذلك إلى الحركة المادية للأوربيين نحو المكسيك، تمت بمقدار مماثل لما هو عليه الحال في جنوب إفريقية أو آسيا الوسطة. ولكنْ بالمقارنة مع هذه المناطق، يعدّ عدد النازحين الأوربيين ضئيلاً، ولكنهم وصلوا في فترةٍ لاحقة ووازنت زيادتهم الطبيعية المرتفعة انخفاضاً طبيعياً بين الأميركيين الأصليين.

يبرر هذه الاختلاف في الديموغرافيا والتوقيت إلى حد كبير ثقافة المكسيك المتكاملة، بالمقارنة مع جنوب إفريقية أو آسيا الوسطى. ولكنَّ عوامل محليةً مارست بعض التأثير. إذ يوجد اختلافات إقليمية جنوب إفريقية أو آسيا الوسطى. ولكنَّ عوامل محليةً مارست بعض التأثير. إذ يوجد اختلافات ضخمة داخل المكسيك. لقد قدم المهاجرون الإسبان إلى البيرو أو إلى غواتيمالا بأعداد مماثلة وبتوقيت مماثل، ولكن التكامل الثقافي الذي تبديه المكسيك يفوق حالياً الدولتين المذكورتين. ويشكل التراث الثقافي للثورة المكسيكية جزءاً من هذا التغيير دون شك، ولكن هذا للوصول إلى تفسير لابد من دراسة مقارنة لحالات أخرى مماثلة لحالة الياكي والمايا في أمريكا اللاتينية.

٦

الخيارات الإدارية ونتائجها، أمثلة من البنغال وآسيا الوسطى، جاوه والملايو

لطالما شكلت الإدارة الحكومية مسألة منذ أمدٍ طويلٍ، باهتمام كل من شارك في تدبير الإمبراطوريات الأوروبية في الخارج، كما كان شأن من حاول حكم أوروبا ذاتها في العصر الصناعي. فشتان ما بين اتخاذ إقرار بخصوص السياسات الواجب اتباعها وبين التأكد من تطبيقها على أرض الواقع. ويتطلب هذا الأمر النمط ذاته من التقنيات الإدارية التي لعبت دوراً في غاية الأهمية لنهوض الغرب في العديد من المجالات المختلفة. ويجذب التاريخ السياسي والدبلوماسي اهتماماً يفوق ما يجذِبُهُ التاريخُ الإداري. إذ يكتنفه ما يكتنفه أي لعبة من إثارةٍ ورابحين وخاسرين، وبراعة في الحركات التي يؤديها اللاعبون. ومن جهةٍ أخرى، يُعنى التاريخ الإداري بطريقة تنفيذ القرارات السياسية التي تزيد أهميتها أحياناً عن القرارات نفسها. وتنوط كفاءة الحكومة الآلية المستخدمة في نقل الأوامر مهما كانت من المجموعة الحاكمة عبر السلاسل الهرمية وصولاً إلى أن تضطر الفئات الدنيا إلى القيام بعملٍ ما أو أن تمتنع عن القيام بشيء.

يبدو لنا بوضوح متزايد أنّ الإدارة الحكومية تشكل جزءاً من تكنولوجيا الإدارة. وقد كان زمان ظهور المهارة الإدارية في أوروبا ذاتها طويلاً وتدريجياً. ففي القرون الوسطى، كان هناك العديد من القوى المرتبطة بالحفاظ على السلم والنظام وتوجيه مسار المجتمع من بين الأفراد المنتمين إلى الزعماء الإقطاعيين.

ويرد على صفحات الكتب الدراسية الخاصة بالحضارة الغربية وصفٌ لسلسلةٍ متتاليةٍ من السلطات الحكومية التي سعت -من بين مساعٍ أخرى- لإقامة بيروقراطية مركزية الحكم وفاعلة. وقد أعقب «الملوك الجدد» في القرن الخامس عشر والسادس عشر «الملوك المطلقو السلطات» في القرن السابع عشر و«المستبدون المتنورون» ENLIGHTENED DESPOTS في القرن الثامن عشر.

حوالي نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر، واكب تطوّر التكنولوجيا الإدارية تطوّر التكنولوجيا الصناعية، في الفترة الزمنية التي كان المجتمع المعقد والمتغير بسرعة في أمس الحاجة لها. وقد كان المستوى الجديد من الإنتاجية يدين بالقدر نفسه لكل من الأدوات التنظيمية والأدوات الميكانيكية إلى حد ما. وقد ظهر التوحيد التشريعي legal uniformity لقانون نابليون بالإضافة إلى التعديلات المكافئة في القانون العادي والتشريعي الإنكليزي عندما كان الاقتصاد بحاجةٍ لأن يستجيب لظروف جديدة. وتزايدت العناية الحكومية بتنظيم المعامل الجديدة عندما كان العصر الصناعي المبكر يسبب مشكلات اجتماعية جديدةً تتطلب عملاً حكومياً. معظمُ هذه الأعمال كانت ضعيفةً ومتأخِّرةً، ولكن هذا التزايد النظاميَّ في القوى الحكومية استمر في كل أنحاء أوروبا في القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين.

نرى هنا اقتراناً واضحاً بين أمرين، فقد تحسنت التكنولوجيا الصناعية وتحسنت معها -في الوقت ذاته- التكنولوجيا الإدارية. في الوقت الحالي، لا يهمنا أي تحسن سبّب الآخر. ولكن ما يجدر ذكره هو أن تغييرات مماثلة كانت تأخذ مجراها عندما باتت ضرورية لإدارة الممتلكات الأوروبية في ما وراء البحار.

وصولاً إلى منتصف القرن الثامن عشر، قيدت الشركات الأوروبية في شرق رأس الرجاء الصالح نفسها في إطار إدارة امبراطوريات المحطات التجارية أو الديسبورات التجارية التي أُضفِيَ عليها الطابع العسكري. ونادراً ما كانت تسعى إما

لاحتلال بلد ما أو لإرسال المستوطنين لاحتلاله على طراز شمال أمريكا- كما أنها لم تسع يوماً للسيطرة على السكان الأصليين وحكمهم على طراز المكسيك والبيرو.

ولكن في محيط المحيط الهندي في النصف الثاني في القرن الثامن عشر، بدؤوا فعلاً في احتلال الأراضي والسيطرة على الشعوب الآسيوية. وكما سبق ذكره، فإنهم اصطدموا بالمشكلات الإدارية ذاتها التي ضربت الملوك الأوروبيين في بلادهم وأعاقت جهود الإسبان الآيلة إلى حكم الأمريكتين.

في بادئ الأمر، حاول الملوك الأوروبيون ومستشاروهم البيروقراطيون حل المشكلات التي واجهتهم في الخارج بالطريقة ذاتها تقريباً التي تستخدموها في أوروبا. أما في بلادهم، فقد سعوا للحصول على دعم الوجهاء المحليين، أو البلدات، أو الكنيسة، أو المؤسسات المهمة كالنقابات. ويعترفون، في مقابل دعمهم، بسيطرة هذه السلطات على الآخرين وأعضاء المجتمع الأدنى. أما في الخارج، فقد استخدموا القوة العسكرية للقيام باحتلالاتهم، ولكنهم حكموا من خلال الحكام المحليين أو الوجهاء الآخرين الذين تمكنوا من إقناعهم بالتعاون معهم.

رأى النمط الجديد النور في بداية بناء الامبراطوريات في مطلع القرن السادس عشر عندما حاول الإسبان للمرة الأولى السيطرة على جزر الكاريبي. في هذا الموقع، وجدوا طبقةً من الوجهاء المحليين عرفوا باسم الكاسيك caciques بلغة الأراواك، واستخدمهم الإسبان لحكم البلاد من خلالهم. وفيما كانوا يتقدمون إلى الأراضي الداخلية من المكسيك وأمريكا الجنوبية، حملوا معهم ما سبق بالإضافة إلى مصطلح الأوراك. ومع مرور الزمن، اختفى الأرواك، ولكن لا نزال نجد كلمة كاسيك في الفيليبين، على مسافة قاصيةٍ عند الدوران حول العالم وبعد مرور خمسة قرون، للإشارة إلى الطبقة الحاكمة المحلية التي تمكنت على مر الزمان من الاستمرار اعتماداً على الاعتراف الإسباني بنفوذ أسلافهم. لقد سمح نفوذهم السياسي، وامتلاكهم للأراضي، وثراؤهم بأن يحافظوا، بوصفهم طبقة، على موقعهم عبر قرونٍ

من الحكم الإسباني، ونصف قرن من الحكم الأميركي، ونصف قرن من الحكم الفيليبيني المستقل.

لكن خلال القرن التاسع عشر، اتخذ التاريخ الإداري في أوروبا منحىً مختلفاً عن النظرية والممارسة الإداريتين المعتمدتين في الامبراطوريات الأوروبية فيما وراء البحار. اقتصر الاهتمام الرئيس كأوروبا على التخلص من بقايا امتيازات النبلاء أو الامتيازات لمجموعات. وفي الحالات القصوى من القرن العشرين، أحرزوا نجاحاً كبيراً إلى حد بات من الممكن استخدام مصطلح شمولي لوصف الأنظمة التي تسعى للسيطرة على المجتمع سيطرة تامة.

ولكن عدد الموظفين العاملين في خدمة الأوروبيين في ما وراء البحار، كان كافياً لإقامة إدارة أوروبية كاملة. وقد وحد الأوروبيون في جنوب إفريقية بأعداد كافية؛ كي يسيطروا على مجتمع المستوطنين ولكنه لم يكن كافياً للسيطرة على الأفارقة أيضاً. ونتيجةً لذلك، كان من الضروري تقديم مساعدة إدارية. قامت القوى الاستعمارية بهذا العمل أحياناً، في إفريقية كما في غيرها من الدول، من خلال توظيف أشخاص محليين مباشرة في خدمة الاستعمار. ويعدّ الحاكم فيليكس إيبوي Felix Eboue من الكونغو الفرنسي مثالاً على الموظف الإفريقي الذي لعب ولاؤه لفرنسا الحرة دوراً مهماً في الحرب العالمية الثانية.

أما منظّرو الإمبراطورية في أوروبا فقد صوّروا الضرورة باعتبارها فضيلة، إذ أكثر انتقاد الهولنديين للحكم الهولندي في جاوه يتضمن مبدأ السيطرة من خلال «حكام طبيعيين» من حَكَمَةٍ، أو على الأقل كل من اعتاد الرعايا العاديين أن ينصاعوا له. لقد كان لجاوه طبقة من الإداريين الذين وصلوا إلى هذه المراكز بالتسلسل، كانوا زعماء طبيعيين، أي volkshoofden، وقد مثلت هيبتهم الموروثة جبهة مفيدة للحكم الهولندي فيما يسمى بالمسرح السياسي- وبالطبع كان الزعماء الطبيعيون يوصفون أحياناً بالدمى. أطلق هؤلاء المنظرون الأوروبيون، أحياناً، على الحكم المشترك بين الهولنديين والزعماء الطبيعيين تسمية نظام الثنائية الحميد. وكانت نية

الهولنديين، بالطبع، الاحتفاظ بزمام الأمور مع الابتعاد، قدر المستطاع، عن الاتصال الفعلي مع عامة الشعب.

كانت شركة الهند البريطانية منسجمة مع الحكومات الهندية بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر، مما أدى تدريجياً إلى انقسام رسمي بين الهند البريطانية، والولايات الأصلية التي كانت بريطانيا تحكمها بشكل غير مباشر. ونحو نهاية القرن التاسع عشر، اعتقد العديد من المنظّرين البريطانيين بأن الحكم غير المباشر كان الهدف الفعلي الذي وضعته الإدارة الإفريقية نصب أعينها، وبموجبه يتم حكم البلاد «من خلال الزعماء» فقط. وروّجت مجموعة من المنظرين المماثلين في فرنسا لسياسات الترابط مع النخبة المحلية في كل مستعمرة، عوضاً عن اشتراك امتصاص للمجتمع والثقافة المحليين للمبادئ الفرنسية امتصاصاً.. واللورد لوغارد في بريطانيا وروبيرت دولافينيت في فرنسا، وقد حكما في المستعمرات الإفريقية في مطلع القرن العشرين، كانا من بين المناصرين البارزين لهذه السياسات.

لقد كان المدافعون عن الثنائية والترابط والحكم غير المباشر متأثرين تأثراً عميقاً بالآراء العنصرية الأوروبية السائدة في تلك الفترة. وقد حاولوا أن يثبتوا، في الواقع، بأنّ الحكومة الأوروبية الجيّدة لم تكن بالضرورة جيدة للامبراطوريات الأوروبية في الخارج بسبب الاختلافات العرقية والثقافية العميقة الجذور. لقد كان السكان الأصليون مختلفين إلى حدٍ بات من الأفضل تركهم يديرون دفة الحكم «بالطريقة التي تحلو لهم»، حتى وإن لم تتناسب الطريقة الإفريقية مع أشكال الحكومة المحلية التي اعتقد الأوروبيون بأنها الأنسب لمجتمعهم الخاص.

ولكنّ القرارات الأساسية اتخذت، في أغلب الأحيان، خلال العقود الأولى من الحكم الأوروبي، وغالباً ما تبعت النظريات الواقع. في الحالات الأولى، سيطر الأوروبيون على مجتمع تحكمه حكومة قائمة مرتبطة لا محالة بالبنية العامة لذلك المجتمع. وباختصار، كان المجتمع عبارةً عن جزءٍ قائم في الثقافة المحلية. ولكن بما أنّ الأوروبيين ما كانوا قادرين على إقامة نظام جديد تماماً، فقد كان من الضروري

تبني جزء من الجهاز الحكومي القائم، بعد تعديله بحيث يتلاءم مع مصالحهم وميولهم. وقد تغير نظام الحكم المحلي تدريجياً تحت تأثير اختيارهم لبعض الأشخاص بدلاً من غيرهم لتنفيذ أوامرهم. وفي بعض الأحيان، كان تأثير هذا الاختيار أشدّ وقعاً من الأوامر نفسها.

مثلت الحكومة ما قبل الاستعمارية عادةً نوعاً من الشرعية القائمة على توازن القوى داخل المجتمع. وتعين على الحكام، مهما بلغت غطرستهم، أن يحترموا ما يقبله الأفرادُ الأكثرُ نفوذاً في المجتمع. وعند وضع نظام استعماري في قمة الهرم، تعيّن على الحكام المحليين في المستوى التالي أن ينصاعوا، في العلانية على الأقل، للأوروبيين. ولكنهم لم يعودوا مضطرين لتهدئة تابعيهم. وبالتالي، كان بإمكان الحكم الأوروبي الحدّ من نفوذهم من أعلى فيما كانوا يعزِّزون سلطتهم على من دونهم. وكان من الممكن أن ينتج عن ذلك إعادة تشكيل كاملة للمجتمعات المحلية، بما أنَّ بعض المجموعات تحركت إلى مواقع النفوذ الحقيقي، في حين انسحبت مجموعاتٌ أخرى من الوسط المسحور، بشكلٍ دائمٍ أحياناً.

أمثلة تاريخية:

يمكن تصوير هذه الاعتبارات العامة بالاستعانة بأمثلة تاريخية مقتبسة من تجربة المجتمعات المتنوعة في جنوب وجنوب شرق آسيا. أدى الخيار الأول للوسطاء الذي قامت به القوة الاستعماري إلى عواقب غير متوقعة دامت طوال حقبة الاستعمار وما بعدها.

ملكية أراضي البنغال:

شكّلت إعادة الترتيب البريطانية لنظام استملاك أراضي البنغال نموذجاً كلاسيكياً للتدخل في ١٧٧٢، اضطلعت شركة شرق الهند البريطانية بدور «ديوان البنغال» تحت سيطرة الإمبراطورية المغولية، وقد شكل ذلك وضعاً شاذاً بما أن الشركة كانت، من الناحية النظرية، شركة تجارية. وأصبحت بالتالي، من الناحية

النظرية ووفقاً لقدراتها المحددة، مسؤولة أمام حكومة المغول، ولكنها كانت قادرة أيضاً على استخدام هذا الدور التابع نظرياً، كي تصبح السلطة المهيمنة، فحلت تدريجياً محل الحكومة المغولية في حكم البنغال.

لم يكن بوسع الشركة البريطانية أن تعرف ما يحدث على أرض البنغال. كما أنها لم تكن أيضاً قادرةً على ممارسة سيطرةٍ فعلية كاملةٍ لو أرادت ولا حتى بقدر ما كانت تمارسه حكومة جورج الثالث في بريطانيا العظمى. ولم يكن في نية الشركة على أي حال أن تمارس، كانت ماتزال شركة تجارية، لكنها تؤدي وظائف سياسية وعسكرية إضافية. وقد كان هدفها من تبوء منصب «ديوان البنغال» أن تضمن حصةً من مردود الأراضي التي حُوِّلت سابقاً إلى دلهي. كانت إمبراطورية المغول، على غرار معظم الامبراطوريات الهندية قبلها «الدولة المالكة للأراضي» والتي كان دخلها الأساسي من العوائد الإنتاجية لتلك الأراضي التي يدفعها كل المزارعين إلى الامبراطور نظرياً. ونظرياً أيضاً، كانت ملكية الأرض تعود إلى الامبراطور بما يشبه المعنى الغربي للملكية، وليس فقط بالمعنى الغربي للسيطرة السياسية.

بشكل عام، كانت حصة الدولة من المحاصيل تُدفع جزئياً للبلاط الامبراطوري. ولكنّ جزءاً آخر كان مخصَّصاً لبعض المسؤولين الامبراطوريين الذين كانوا يحصلون على جزء من العوائد بدلاً من الراتب.

يتعلق هذا الأمر بأراضي الإقطاع Jagir. ولم يكن مالكو الجاغير يجمعون نصيبهم بأنفسهم. بل عوضاً عن ذلك. أوكلوا، منذ مدة طويلةٍ، وظيفة جمع المردود الفعلي لطبقة تابعة تُعرف باسم الزميندار Zamindari، وهم مجموعة من الجباة والملتزمين توارثوا وظيفتهم هذه عن أجدادهم الذين كانوا يؤدون العمل ذاته تقريباً حتّى قبل تأسيس الإمبراطورية والملتزمين المغولية في القرن السادس عشر.

لقد كان مردود الأراضي المأخوذ مرتفعاً، ويشكل نسبةً تتراوح بين ثلث المحصول الإجمالي ونصفه. وقد سُمِح للزاميندار بالاحتفاظ بحوالي ١٠ بالمئة من هذه النسبة، في مقابل خدمات الجباية، وكذلك لحفاظهم على القانون والانضباط،

وتأمين الجند المقاتلين في أوقات الحروب. ويختلف حجم استملاك الملتزمين اختلافاً شديداً. فقد يكون ضئيلاً إلى حد يدفع الزميندار إلى العمل بنفسه في الأرض بمساعدة بضعة أجزاء، أو قد يصل إلى عدة قرى. وفي الحالتين كانت حقوق الزميندار في الجباية متوارثة، ويمكن نقلها إلى الغير، كما كان بالإمكان طرحها للبيع في الأسواق.

من ناحية أخرى، مرت بعض الحقوق في سلسلةٍ من المراحل بحيث كانت الجباية ينتقل من الزاميندار الأول إلى الثانوي، وحتى إلى ملتزم من المرتبة الثالثة. وقد كان من المفترض أن يساعد كل منهم في الحفاظ على القانون والنظام ويوفر المساعدة العسكرية في حالات الطوارئ. وفي مقابل ذلك، يُسمح لكل واحدٍ منهم أن يحتفظ بما بين ٢ إلى ١٠ بالمئة من المردود الذي كان يصل إليه. ويقع في المرتبة الدنيا من كل مراتب الزميندار الفلاحون الذين عملوا فعلياً في الأرض. يحوزون الأراضي عادةً بعقود إيجار وراثية وبذلك كانت لهم حقوق دائمة على بقعة معينة من الأراضي المزروعة.

أما ما انبثق عن هذا النظام، بكل ما يكتنفه من تعقيدات، فهو عبارة عن اقتصاد زراعي تعود ملكية الأراضي بموجبه، من الناحية النظرية إلى الدولة، ولكن يحظى العديد من الأفراد والعائلات المختلفة بحقوق محددة على قِطَعٍ معيَنةٍ من الأراضي. ولم تصل أيٌّ من هذه الحقوق إلى مستوى الملكية بمعناها الغربي. ولم تكن أيٌّ من هذه المدفوعات محدَّدةً بوضوحٍ على أنها ضريبةٌ مفروضةٌ أو قيمة الإيجار بالمعالم الغربية. كما لم تكن قيمة هذه الحقوق مرتبطة بقيمة السوق القائمة على الوفرة والنُدرة scaracity value للأرض ذاتها. وبما أن كثافة السكان كانت منخفضة في القرن الثامن عشر، فلم يكنَّ للمطالبة بالأراضي أهميةٌ كبيرة.

عندما احتلت شركة الهند الشرقية البنغال، حاولت إيجاد وسيلة لجباية المردود بأكبر قدر ممكن من الفاعلية دون التسبب بمقاومة قوية. وبما أن الشركة تجاوزت مرتبة الملتزمين المأجورين مباشرةً إلى الفلاحين الذين عملوا في الأرض، تماماً كما

فعلت في وقت لاحقٍ في أجزاء أخرى من الهند، فقد أُعجب موظفو الشركة بما اعتبروه المكاسب الاجتماعية للنظام البريطاني لاستملاك الأراضي. في ظل هذا النظام، تعود ملكية قسم كبير من الأراضي في إنكلترا إلى عدد من المالكين الذين كانوا غالباً من النبلاء. أما الإنتاج الزراعي فقد كان يشرف على إدارته في الواقع المزارعون الذين كانوا يدفعون إيجاراً ولكنهم كانوا متمّولين، ولذلك كانوا يوظفون فلاحين للقيام بالجزء الأكبر من الأعمال. أما مالكو الأراضي الإنكليز فهم أفراد أعضاء في الطبقات العليا وكانوا يتقاضون الإيجار، علماً بأنه كان يُتوقع منهم ضمنياً شغل مناصب عامة مفيدة من مثل قضاة أو أعضاء في البرلمان، وإدخال أبنائهم للعمل كضباط في الجيش أو في البحرية. صحيح أن رواتب معينة كانت مخصصة لهذه الوظائف، ولكنها كانت منخفضة إلى ما دون مستوى تكلفة إبقاء نبيل من النبلاء في هذه المناصب المذكورة، في البنغال، استخدم النظام الإنكليزي كنموذج، فسعى موظفو الشركة إلى وضع الزاميندار في منصب شكلي على طراز مالك الأراضي الإنكليزي. واعترفت الشركة بهم على أنهم مالكو الأراضي والمسؤولون عن دفع المردود. وقرر أيضاً، في ١٧٩٣، تحديد المردود بمبلغ ثابت من المال لكل قطعة من الأرض لا يتغير مع مرور الزمن. وعرف هذا الإجراء في التاريخ الهندي بالتسوية settlement الدائمة للبنغال.

نتج، بشكل عام، عن هذه التسوية أو هذه الصيغة انحصار الحقوق المختلفة للأراضي ضمن مجموعة واحدة عُرِّفت على أنها: مجموعة المالكين، أي الزاميندارين الأصليين الذين كانوا يجمعون المردود الأول من الفلاحين. وبالتالي فقد الإقطاعيون الكبار والملتزمون والفلاحون حقوقهم العرفية. وهكذا أنتجت الصيغة الدائمة تحولات مهمة في مدخول العديد من المستحقين الذين تغيروا أيضاً مع مرور الزمن.

في المرحلة الأولى، خسر كل المطالبين بالأرض أو بإنتاجها لصالح الزاميندار الأول. وفي غضون بضعة عقود، خفض التضخم القيمة الحقيقية للمردود، وتكبد

الراج البريطاني نفسه خسارةً مقارنةً بالدخل الأول. لكن مع تزايد عدد السكان، زادت قيمة الأراضي، وازداد ثراء مالكي الحقوق من الزميندارين بفضل المكاسب غير المتوقعة؛ ولكن التبدل الاجتماعي الفعلي كان أكثر تعقيداً. في أجزاء عديدة من البنغال، عجز الزميندايون عن الاحتفاظ بمناصبهم؛ لأن الدفعات الأولى التي كانوا يدينون بها للشركة كانت مرتفعة للغاية. وبالتالي كانوا مضطرين للبيع للغير، وفي أغلب الأحيان، لأثرياء من كالكوتا ومراكز حضرية أخرى أبدت استعدادها للاستثمار في المردودات المستقبلية للأراضي. ولم يكن المالكون الحضريون الجدد يقيمون على مقربة من الأراضي، كما لم تكن لهم أي علاقة شخصية بالفلاحين الذين كانوا يعملون في الأرض، ولذلك أصبح الهدف الاجتماعي الرسمي القائم على طبقة الملاَّك الإنكليزية بعيداً بشكل متزايد.

ومن الناحية العملية تغيّر موقع الزميندار أيضاً عندما تحوّلت الواجبات الإدارية والعسكرية السابقة إلى فروع أخرى ضمن البيروقراطية الجديدة. وعوضاً عن أن يشكلوا جزءاً من الحكومة المحلية في المستويات الوسطى والدنيا أصبحوا مجرد جباة للإيجارات- لكنّ في الواقع، صاروا مالكين للأراضي يدفعون جزءاً من مدخولهم للحكومة.

وبالإمكان تعقب التاريخ الطويل الأمد للزميندار البنغالي بوصفهم طبقة عبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي المتأخر للنبغال وبنغلاديش، لكنّ ما يهمنا في هذا الصدد هو: أن سياسة جديدة تتعلق بتقييم المردود سببت شكلاً من أشكال إعادة توزيع الدخل والمناصب الاجتماعية. وأصبحتها التسوية الدائمة للنبغال مثالاً تقليدياً عن التغيرات غير المقصودة التي تنتج عن تدخل حكام الإمبراطوريات الأوروبية في الأنظمة المحلية لملكية الأرض.

روسيا في آسيا الوسطى:

قبل الستينيات من القرن التاسع عشر، لم يكن التقدم الروسي في الأراضي الداخلية غير السلافية لآسيا الوسطى قد وصل إلا إلى محيط المجتمعات المهمة

المقيمة على طول الأودية المروية لنهري سيحون وجيحون المتدفق إلى بحر الأورال. حيث كانت الوحدات السياسية الرئيسة هي خانات كوكند وخيوه وبخارى. وفي الفترة المتراوحة بين الستينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، صار التقدم العسكري الروسي سريعاً وكاملاً. ضمّ الروس كوكند مباشرةً، بالإضافة إلى أجزاء الخانتين الأخريين، ولكنهم تركوا القسم الأعظم من خيوه وبخارى في ظل إدارة روسية فعلية أقلّ مما كان عليه الحال عامةً في الولايات الأصلية في الهند.

وابتداءً من الستينيات من القرن التاسع عشر، لم يكن أمام الروس بشأن ملكية الأرض الخيارات التي لدى الإنجليز المحتلين للبنغال. وعلى غرار الهند تحت حكم المغول- وكما هو معروف عامةً في الفقه الإسلامي- تعود ملكية الأراضي كافة من الناحية النظرية إلى الدولة. ولكنّ السيطرة الفعلية على الأراضي في المناطق الحضرية في آسيا الوسطى كانت في أيدي الطبقة الأرستقراطية المحلية، وبعض المؤسسات الخيرية الإسلامية (الأوقاف)، وحذا الروس في البداية حذو البريطانيين في البنغال وعاملوا القيّمين على الأراضي على أنهم الملاّك، ولكنهم كانوا يرغبون بزيادة المردود الحكومي إلى أقصى حد، كما كانت الشكوك تساورهم بخصوص الطبقة الأرستقراطية؛ لذلك أعلنوا بأنّ ملكية كافة الأراضي لا تزال تعود للدولة، ولكنّ الحيازة الفعلية هي من نصيب الذين كانوا بالفعل يعملون فيها. جُلُّ ما احتفظوا به من سُلُطاتٍ محلية كانت ممثَّلةً بالموظفين في القرى المسؤولين عن مياه الري، واعتُبروا مستقلين عن طبقة الارستقراطيين القديمة.

لم يقتصر الطابع الثوري النابع من هذ الحركة على آسيا الوسطى فحسب. فقد جاد بكرمه على الفلاحيين المحليين أكثر مما فعل مع العبيد الروس عند إعتاقهم في الستينيات من القرن التاسع عشر. ولكنّ الداعي لم يكن إقامة طبقة الفلاحين الأحرار كهدف اجتماعي مطلوب، بل الحصول على قدر أكبر من مردود الأراضي. اعتقد الروس أنه بالإمكان انتزاع المزيد من الفلاحين من خلال القضاء على المطالبين الآخرين واستخدام خدمات جباة الضرائب المأجورين وغير الدائمين.

أدى النظام الروسي لملكية الأراضي في سنة ١٨٦٨م على غرار غيره من الأنظمة التي كان من الممكن انتقاؤها، إلى عواقب اجتماعية. ومن أبرز هذه العواقب، إفقار الطبقة الأرستقراطية المحلية، التي خسرت تدريجياً هيبتها لصالح المجتمع المحلي. وبحلول الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية، كان الأمراء والسادة الإقطاعيون قد اختفوا إلى حد كبير من المناطق المحلقة، علماً بأن نفوذهم وسطوتهم استمرتا في الخانتين شبه المستقلتين.

ومع دنو حقبة الثورة، كان المصدران الوحيدان للقيادة المحلية لدى مُلاك الأرض في القرى أو بين النخبة المسلمة المتدنِّية المثقفة. وقد تكون الاضطرابات الناتجة عن الحرب قد دفعت بعض سكان آسيا الوسطى للسعي وراء الحصول على استقلالهم عن روسيا- أو عن الاتحاد السوفييتي بعد ١٩١٧- ولكن في الغالب لم يحدث شيء من هذا القبيل. ففي سنة ١٩١٦، عمّت احتجاجات آسيا الوسطى بسبب أعمال السخرة، ولكن لم تنبثق أيُّ حركة بارزة مطالبة بالاستقلال حينها أو مباشرةً عَقِب الثورة. وصدرت المعارضة الأشرس للنظام السوفييتي الجديد من خيوة وبخارى، وقد نزعها الأرستقراطيون المحليون الذين سمح لهم النظام الروسي السابق بالبقاء في مراكز نفوذ بوصفهم حكاماً غير مباشرين.

بحلول العشرينيات من القرن العشرين، شعر الاتحاد السوفييتي بأنه يتمتع بقوة كافية ليحاول تطبيق ترتيباته الخاصة في إعادة تشكيل بنية مجتمع آسيا الوسطى. في الأراضي المروية من تركستان، نشر السوفييت سيطرتهم على أراضي الدولة السابقة كافة التي وزعتها روسيا على الفلاحين منذ نصف قرن خلا وحوَّلها إلى مزارع جماعية كبيرة وُضعت عادةً تحت إدارة روسية سوفييته. لقد بات إدخال الطابع الروسي على الإدارة أمراً ممكناً بما أنّ عدد المستوطنين الروس شكّل مجتمعاً أولياً متعدداً يتضمن عدداً من الدخلاء السلافيين يكفي لتزويد الإدارة grassroots بالموظفين. لا ينبغي أن ننسى، في الخلفية، وجود القطن الذي لعب

دوراً مهماً لغاية بالنسبة للدولة السوفييتية، بحيث صارت قادرة على استثمار الموارد اللازمة لتنظيم تلك العملية وفقاً للممارسات الجماعية.

ووجد السوفييت أنه من الضروري توظيف إداريين محليين لأسباب سياسية جزئياً. ولكن محاولتهم «استخدام السكان الأصليين» في الإدارة أدت أيضاً إلى نتائج اجتماعية. وربما حاول السوفييت العمل من خلال الأشخاص الذين احتلوا مراكز القيادة المحلية في الماضي. ولكنّ الطبقة الارستقراطية اختفت. ثم إنّ الشكوك ساورتهم حيال الفلاحين؛ ولذلك سعوا لتوظيف أشخاص يطابقون المعايير الروسية بدلاً من هم. وبعملهم هذا ، كوَّنوا نخبة جديدة تدربت على النظام السوفييتي إلا أنها لم تُظهر -على المدى الطويل- ولاءً له يفوق ما كانت تبديه الجمهورية السوفييتية الاشتراكية التي حصلت على استقلالها عند انهيار الاتحاد السوفييتي.

جاوة:

يمثل النزام الهولندي في جاوة مثالاً لشكلٍ مختلف من الخيارات الإدارية. عند وصول الهولنديين في مطلع القرن السابع عشر، كان القسم الأكبر من جاوة خاضعاً لسيطرة إمبراطوريةٍ بيروقراطية، هي إمبراطورية الماتارام. كانت كثافة السكان في الجزيرة مرتفعة، كما كان القرويون ينتجون الأرز غير المقشور الذي يشكل المحصول الغذائي الأساسي. وشغل البلاط الامبراطوري قمة الهرم البيروقراطي، الذي كانت له سيطرة اسمية على البوباتي أو زعماء الأقاليم. والبوباتي وجهاء وزعماء عشائر في الحواضر والأرياف، كان البلاط يعترف بهم، وينقل سلطاتهم أيضاً إلى أولادهم.

وحكم البوباتي من خلال طبقة تابعة من النخبة تعرف باسم البريايي الذي كانت تفصلهم عن الفلاحين العاديين هوة عميقة من الثقافة والتقاليد. اتَّسمت ثقافة جاوة التقليدية بكل ما تشتمل عليه من مسرحيات خيال الظل والموسيقى والكتابات الدينية بطابع البيريايي أساساً وهو مُغايرٌ تماماً لحياة الفلاحين الثقافية.

لم يكن في نية التجار الهولنديين الذين وصلوا في القرن السابع عشر السيطرةُ على ماتارام، حتى كانوا قادرين على ذلك. ولكنهم كانوا بحاجة إلى قاعدة محلية فاحتلوا مدينة جاكارتا الساحلية وأعادوا تسميتها باتافيا. تأسست الشركة الهولندية شرق الهند على شكل شركة تجارية، مع أنها كانت مخوّلةً شنَّ الحروب عند الضرورة لتوسيع إطار تجارتها. واستخدمت باتافيا كقاعدة للتجارة وللمفاوضات التي كانت تجريها مع القوى الأخرى في المنطقة من خلال الضغط التجاري، والحروب، والدبلوماسية.

دخلت شركة الهند الشرقية الهولندية في متاهة السياسات في بلاط ماتارام، محاولةً على الدوام الحصول على المزيد من الأفضلية التجارية والأمان لقاعدتها. اتكلت بشكل رئيس على الدبلوماسية، ولكنها كانت تنصر أحد الحكام على آخر بالتدخلات العسكرية. ونتيجةً للضغوطات المتعددة، اكتسبت الشركة الهولندية تدريجياً أراضي تمتلكها ماتارام، وكان القسم الأكبر منها في جوار جاكاراتا. كانت الشركة تمارس أعمالاً إدارية، محاولةً الحصول على الميزات الاحتكارية التي يمكن أن تنتج عن استخدامٍ معتدلٍ للقوة. ولم تكن تسعى لحكم البلاد بشكل فعلي. وخلافاً للوضع الذي واجهته الشركة البريطانية في الهند، لم يشكل مردود الأراضي موضوع اهتمام رئيس، علماً بأن أهميته ستظهر بعد أن سلمت الشركة الهولندية زمام الأمور لحكومة الهند الهولندية في مطلع القرن التاسع عشر.

تركت الشركة الهولندية أراضي جاوة التي كانت خاضعةً لسيطرتها بين أيدي طبقة البوباتي ذاتها التي خدمت مسبقاً في ماتارام. وفي بعض الأحيان، كانت تبقي، بكل بساطة، الموظفين ذاتهم في مناصبهم وتضفي عليهم لقب regenten (كلمة حاكم باللغة الهولندية). وتُطْلَقُ عليهم تسمية regent الإنكليزية في كتب التاريخ الخاصة بتاريخ جاوة، مع أن هذا المصطلح يحمل بالإنكليزية عادةً معنىً مختلفاً بعض الشيء. وعلى كل حال، استمر نظام الحكم هذا من خلال الحكام المحليين

بمواكبة تزايد السيطرة الهولندية في البلاد، وتدنّي نفوذ بلاط ماتارام، إلى أن تمكن الهولنديون من بسط سيطرتهم على الجزيرة بأسرها.

تغيرت القوة الفعلية للحكام مع مرور الزمن. فخلال القرن الثامن عشر، اتسم نفوذهم بقوة فاقت ما كان عليه أسلافهم، على الأرجح، في ظل حكم ماتارام. لقد أطلقت يدهم إلى حد مقعول في أراضيهم الخاصة، لأنه لم تكن للهولنديين اهتمامات تتعدى العمل التجاري. قدمت الشركة الهولندية للحكام رئيساً قوياً دعمهم وحرَّرهم بالتالي من خطر قلب النظام عليهم من الطبقات الدنيا. وفي المقابل، أولت الشركة الحكام مسؤولية التأكد من عمل الفلاحين في الزراعة، وتوصيل بعض المنتوجات الأوروبية.

في سنة ١٨٠٠، تكبّدت الشركة خسارة مالية كبيرة، فاستلمت الحكومة الهولندية زمام الأمور في أراضيها، وبدأ الحكام الجدد بخلاف النزعة السابقة، وواصل الاحتلال البريطاني الذي دام من عام ١٨١١ حتى ١٨١٦ فرض سيطرة مركزية محكمة، وأدخل تشديداً جديداً على مردود الأراضي. وحذا في ذلك حذو المثال الهندي. كما أن البريطانيين بدؤوا بتخصيص أراض خصبة لمزارعين أوروبيين كي يستغلوها استغلالاً مباشراً يتطلب مراقبةً أكثر تشدداً.

عند عودة الهولنديين من الحروب النابوليونية، عيّنوا مقيماً هولندياً في بلاط كلٍ من الحكام، وأمروا بنقض أي قرار من قرارات الحكام، كما فرضوا مجموعةً مفصلةً من التعليمات الإدارية، مستخدمين الحكام لفرض السياسة الاقتصادية المطبقة في تلك الفترة؛ سواء أكانت تقضي بجباية إيجارات الأراضي للحكومة المركزية. أم تطلب بعض أنواع المحاصيل على شكل جزية، أو مراقبة التعديات التي تعرض لها مزارع يمتلكها الهولنديون على حساب الزراعة القروية التقليدية. وتشير هذه الأهداف والوسائل الجديدة إلى أن الهولنديين نزعوا نحو إقامة بيروقراطية أوروبية الطراز، ولكنّ تطورات أخرى أبطلتْ هذا التوجُّه.

بدأت حرب جاوة التي امتدت من سنة ١٨٢٥ إلى ١٨٣٠ على أنها ثورة ضد حكومة الهند الهولندية بقيادة الأمير ديباناغارا Dipanagara الذي كان يحظى بإعجاب الجماهير. كانت حرمته تتضمن عناصر ألفية Millenarian ونشورية إسلامية جذبت للأمير عدداً كبيراً من الأتباع بين سكان المناطق الريفية. وربح الهولنديون الحرب بفضل ما قدمه معظم الحكّام المحليين من دعم، ولكنّ الفوز كان باهظَ التكاليف. ولقد لقنتهم هذه التجربة درساً ألا وهو أنّ دعم الحكام ضروري لاستقرار نظامهم- فقد كانوا في كل الأحوال القادة الطبيعيين الذين اعتاد سكان جاوة على الانصياع لهم. وهكذا تأكدت قيمة الثنائية في الحكومة الاستعمارية، وساعدت في إبقاء الحكام قادةً لجاوة- ولتابعيهم من البرايي- إلى أن احتلها اليابانيون سنة ١٩٤٢.

حدث تغيير بالطبع ولكنّ سكان جاوة اضطلعوا بالقسم الأعظم من الإدارة اليومية. ففي سنة ١٨٦٥، كان الهولنديون يحكمون جاوة التي كان يبلغ عدد سكانها حوالي ١٢ مليون نسمة، فيما لم يتعد عدد الموظفين المدنيين الهولنديين ١٤٥، وقد كانوا يحكمون من خلال ٦٩ حاكماً regents ينصاع لهم حوالي ٤٠٠ زعيم إقليمي من البرايي الذين حاولوا بدورهم الحفاظ على الانضباط بين آلافٍ من الوجهاء القرويين. وبحلول القرن العشرين، زادت الحكومة الاستعمارية تعقيداً، مع أن عدد الحكام regents لم يزد في سنة ١٩٣٠، عن ٧٢ حاكماً في جاوة بأسرها.

اتصف الهولنديون بالتضارب فيما يتعلق بالإدارة الاستعمارية، لقد عيل صبرهم تجاه التقليدية الشديدة للحكام المحليين. ولكنهم يعتمدون عليهم باعتبارهم حلفاء مهمين طوال النصف الأول من القرن العشرين. شعروا بأنّ الخطر الحقيقي الذي كان يُحْدق بنظامهم، متأتٍ من مصدرين أحدهما على مستوى القرية يصدر من المطالب الدينية للوجهاء المسلمين، والثاني على المستوى السياسي يصدر من الوطنيين الحضريين الذين تلقوا تعليماً غربياً ويطالبون بالاستقلال. وفيما كانت الحكومة الهولندية تدعم الحكام regents، فقد كانت

تتعامل عند الإمكان مع طبقة البريايي الدنيا أيضاً، الذين تعلموا اللغة الهولندية وتلقوا تعليماً على الطريقة الهولندية.

أولى الحكام regents أهميةً كبيرةً للدعم الهولندي جزئياً؛ لأنهم لم يكونوا يتمتعون بشعبية لدى الطرف الديني والطرف الوطني في المعارضة. وظلت مناصبهم متوارثةً جيلاً بعد جيل إلى حدٍ كبير تطبيقاً لعرفٍ معتمدٍ وليس للقانون. وفي سنة ١٩٣٠، كان حوالي ثلثي الحكام البالغ عددهم ٧٥ ابناً لحاكمٍ سابقٍ أو أحد أقاربهم في بعض أجزاء جاوة وأخيراً، تلاشى منصب الحاكم في خضم الاضطرابات التي سببها الاحتلال الياباني وحرب الاستقلال التي أعقبتها. ولكنّ العديد من تقاليد البريايي التي تشكل طبقة كثيرة العدد نقلت إلى الخدمة المدنية الموسعة على نطاق كبير في إندونيسيا المستقلة. وعقب منتصف الستينيات من القرن العشرين، شغل الحكام العسكريون الجدد مناصب أشبه بالحكومة المركزية الهولندية في باتافيا، وأسهم المتحدرون من سيلة البريايي مساهمةً مهمةً في عضوية البيروقراطية التي استولت على دور البريايي الذين استخدمهم الهولنديون والحكام REGENT لحكم البلاد من خلالهم.

الملايو:

تماثل شبه الجزيرة الملايو جاوة لغوياً وثقافياً، كما أنها مرت بفترةٍ من الحكم الثنائي الذي انقسم بين سلاطين الملايو من جهة، والمسؤوولين البريطاني، من جهة ثانية. ولكن تباينت طبيعة المواجهة ونتيجتها الطويلة الأمد تبايناً كاملاً. بادئ ذي بدء، اتسم الاهتمام البريطاني في جنوب شرق آسيا في القرن التاسع عشر بالطابع التجاري حصراً. لقد بنى البريطانيون امبراطوريتهم الإقليمية في الهند، وقد أعادت بريطانيا بكل رضاها جاوة إلى هولندا بعد حروب نابوليون. ولكنها احتفظت ببضعة مرافئ صغيرة على مضيق ملقة، وأسست مدينةً مرفئيةً جديدةً عند سنغافورة لضمان المرور عبر المضائق ونشر تجارتهم في البلاد المجاورة.

على شبه جزيرة الملايو كانت سيام تمثل الكيان السياسي الوحيد الذي كان يقارب من حيث النفوذ ماتارام، أو حتى جاكرتا. وقد امتدت سلطتهم نحو الجنوب داخل ما صار حالياً شمال ماليزيا. وانتشرت بين الكتلة السيامية ومستوطنات المضائق البريطانية سلسلة من الدويلات الصغيرة الواقعة عند مصبات الأنهار، وقد كانت كل منها تسعى دون إحراز الكثير للسيطرة على تجارة الأراضي الداخلية. وبالكاد تميَّز أيٌّ من سلاطين هذه الدول بما يشبه النفوذ الذي كان يتمتع به البوباتي المتوسطي المستوى العالمي في خدمة ماتارام أو الحكام العاملين في خدمة الهولنديين في الفترة ذاتها في كل الحالات. كان عدد سكان شبه جزيرة الملايو أقل بكثير عنه في جاوة. لقد سبق وتطرقنا في الفصل الثالث إلى مسألة الاضطرابات التي قادت إلى تطبيق نظام المحميات البريطانية على دول الملايو. كانت معاهدة بانكور بالإضافة على معاهدات أخرى تشكلت على طرازها تشبه سطحياً العلاقات التي كانت تربط بين حكام الهند الهولندية وحكام regent جاوة ولكنْ خلافاً للاتفاق الذي عقد مع المقيمين في جاوة، تضمنت معاهدات الملايو شرطاً يفرض أن يطلب كل سلطانٍ نصيحة المقيم في منطقته واحترامها في كل المسائل المغايرة لتلك التي تمس ديانة الملايو وتقاليدها. وخلال العقود التالية، وضعت معاهدات مماثلة وقعت مع سلاطين آخرين أساسات دول الملايو المتحدة. وفي نهاية المطاف ظهر كيان أوسع نطاقاً وهو الملايو البريطانية- التي أصبحت فيما بعد دولة ماليزيا المستقلة الحالية.

وتبقى المسألة الجوهرية هي: إلى أي حدٍ يمنح المقيمون الجدد النصيحة، وإلى أي نوعٍ تنتمي هذه النصيحة؟ مارست الإمبراطورية الهولندية مجموعةً متنوعةً من ممارسات الحكم غير المباشر. ولكنَّ سلاطين الملايو افتقروا، في هذه الحالة، إلى الآلية الإدارية التي تخولهم معالجة أكثر مشكلاتهم إلحاحاً، أي الهجرة الصينية والنمو الاقتصادي المستند إلى القصدير والمزارع. تمحور الحلّ الذي اقترحه المقيمون حول إقامة إدارة حكومية جديدة غربية الطراز تخضع نظرياً لحكم السلاطين ولكن بإدارتهم هم في الواقع.

وتجاهل المقيمون أشكال الملايو الحكومية وأدخلوا الموظفين البريطانيين والأشكال القانونية البريطانية. وعندما كانوا يشعرون بالحاجة لموظفين محليين تابعين، كانوا يختارونهم من بين السكان المحليين المتعلمين على الطريقة الغربية. وفيما احتفظ الهولنديون في جاوة بقانون البلاد المحلي في كلا الحالات التي كانت تخص غير الهولنديين، أدخل البريطانيون في ولاية الملايو القانون الجزائي الهندي الذي كان غربياً في جوهره. أما في الحالات المدنية، فقد أدخلوا نظاماً قانونياً جديداً مستنداً إلى القانون المدني البريطاني. وتحوّل السلاطين إلى مجموعة من الملوك الدستوريين يمتلكون كل ما يحيط بالنفوذ من زخرفة، ولكنهم لا يتمتعون بسلطة فعلية خارج الحياة الثقافية والدينية. احتاج البريطانيون للسلاطين باعتبارهم ممثلين، كما احتاج السلاطين البريطانيين من أجل تسيير الإدارة الغربية الطراز.

كان الهولنديون ينتحون منحىً مماثلاً قبل حرب جاوة. ولكن سعيهم للأمن دفعهم، عقب الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، للاعتماد على الحكام الذين كانوا يمارسون سلطة فعلية بالأساليب التقليدية. تقبلت سنغافورة والسلاطين على حدٍ سواء، هذا الحل الذي اقترحه مقيمو الملايو في إدخال المزيد من الطرائق الغربية إلى الإدارة. ولم تكن لندن على علم بالكثير عن السياسات الفعلية المعتمدة إلا بعدما كانت تترجم على أرض الواقع. وفي الوقت ذاته، لم يكن مقيمو الملايو أعضاء عاديين في حكومة مستوطنات المضائق. ولذلك كانوا يتمتعون بقدر من حرية التصرف، ولم تكن سنغافورة مهتمةً اهتماماً عميقاً بتصرفات المقيمين في ولايات الملايو طالما لم يكونوا يطالبون بزيادات أساسية في ميزانيتهم. وتزايد نفوذ السلطات تزايداً كبيراً من خلال الأعمال التي كان يطلقها المقيمون، في حين تناقصت سلطة السلاطين؛ ولكنّ ضَعفَ نفوذهم كان مصحوباً بزيادةِ ثرواتهم وتعزُّز هيبتهم ومركزهم. وفيما أصبح نظامُ الحماية المفروض على ولايات الملايو خيالياً ومعقداً ومتنوعاً، بات موقع السلاطين الرسمي مضموناً أكثر من ذي قبل.

كان من نتائج هذه العملية تحويل سلاطين الملايو إلى مجموعة من الدُّمى المعدومة النفوذ، لذلك لم تشكل أيَّ خطر على القيادة الوطنية في فترة الاستقلال سنة ١٩٥٧. أُبقي على السلاطين كشكل من أشكال الملكية الدستورية، وكانوا ينتخبون دورياً واحداً منهم رئيساً لدولة ماليزيا لولايةٍ تدوم خمس سنوات. وعلى المدى الطويل، كوَّن سلاطين الملايو ملكيةً من بين بضع ملكيات غير غربية استمرت في حقبة الحماية الأوروبية وبقيت في زمن الاستقلال دون إقدام الشعب على خلع أولئك السلاطين.

مناقشة:

من بين الأمثلة الأربعة المذكورة، يعدّ البلدان الأوّلان، أي البنغال وآسيا الوسطى، مثالين على التغيرات في ملكية الأراضي التي اتخذت اتجاهات متعاكسة. اختير الزميندار في البنغال من بين عدة مجموعات لهم حقوق تاريخية، وارتقوا إلى مرتبة مُلاك الأرض. ولكنّ قلةً قليلةً من الزميندار نقلوا امتيازاتهم إلى نسلهم. دخل أشخاصٌ جُدُدٌ جرى إقصاءُ القُدامى.

من ناحية أخرى، حُرم الأشخاص المناظرون للزميندار في آسيا الوسطى، من ألقابهم وحقوقهم. وانتقل ما يشبه ملكية الأراضي إلى الفلاحين، ولكنهم هُزموا أيضاً في الثلاثينيات من القرن العشرين لصالح تطبيق المبدأ الجماعي. انتقل الحكم الفعلي للتقنيين والبيروقراطيين المناصرين للتحديث والمدربين على يد السوفييت.

وثمة نقطةٌ مثيرةٌ للتهكم مفادها: أن الأوروبيين الذين سعوا لزيادة مردود الأراضي إلى أعلى مستوياته كانوا قد وضعوا نصب أعينهم أيضاً أهدافاً اجتماعية وسياسةً أخرى. وقد دفعتهم محاولة تحقيق هذه الأهداف إلى إدخال تغييرات في الأنظمة التقليدية لملكية الأراضي، وقد نتج عن ذلك تغير أساسي في مجتمع البنغال، ولم تظهر كل العواقب التي كانوا يتوقعونها.

أما المجموعة الثانية من الحالات فذات صلة بحركة التحديث الإداري والسياسي بموازاة مسألة ملكية الأراضي. فقد ظلت الهوة الفاصلة بين المقاصد والنتائج على

حالها تقريباً بالنسبة للأوربيين وغير الأوربيين على حد سواء. فيما كان الحكام يعملون في خدمة الهولنديين، حوّلوا أنفسهم، على مدار قرن من الزمن أو أكثر، إلى طبقة من الموظفين يضمنون بقاءهم في مناصبهم أكثر من سابقيهم البوباتي في ظل حكم ماتارام. استفاد الهولنديون منهم كأنهم ممثلون على خشبة مسرح سياسي. ولكنّ النفوذ الذي تمتعوا به وقف في وجه المجموعات المنبثقة على أرض جاوة، وهم الوطنيون المتعلمون على يد الغربيين من جهة، والزعماء الدينيون المسلمون التقليديون من جهةٍ أخرى. وفي الوقت المناسب، وعلى الرغم من شكل من أشكال الاستمرارية في السلطات الممنوحة لبيروقراطية البرايي، تلاشى منصب الحكام regents على يد البيروقراطيين الجدد المتعلمين على الطريقة الغربية والعسكرية.

ومن جهة أخرى، تمكن السلاطين في الملايو من البقاء في مراكزهم، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى تخليهم عن نفوذهم لصالح نمط غربي من الإدارة عند مستويات دنيا. ولم يشكلوا بالتالي أيَّ عائق أمام السلطة الاستعمارية ولا أمام القيادة الوطنية بعد الاستقلال.. تمتع سلاطين الملايو، بوصفهم ملوكاً دستوريين بسطوةٍ فعليةٍ في المسائل السياسية فاقت ما كان يحظى به معظم أسلافهم. وفي الحالتين، في البنغال كما في آسيا الوسطى، اضطلعت الخيارات الإدارية الأوروبية بدور جوهري في مسار التاريخ المتأخر، حتى بعد الاستقلال، ولكنّ النتيجة لم تكن إحدى العواقب التي كان يرجوها الأوربيون أو يتوقعونها.